كتاب الإملاء في إشكالات الإحياء

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله على ما خصص وعمم ، وصلى الله على سيد جميع الأنبياء المبعوث إلى العرب والعجم ، وعلى آله وعترته وسلم كثيرا وكرم ، سألت يسرك الله لمراتب العلم تصعد مراقيها ، وقرب لك مقامات الولاية تحل معاليها عن بعض ما وقع في الإملاء الملقب بالإحياء مما أشكل على من حجب فهمه وقصر علمه ، ولم يفز بشيء من الحظوظ الملكية قدحه وسهمه ، وأظهرت التحزن لما شاش به شركاء الطغام ، وأمثال الأنعام ، وإجماع العوام ، وسفهاء الأحلام ، وذعار أهل الإسلام ، حتى طعنوا عليه ، ونهوا عن قراءته ، ومطالعته ، وأفتوا بمجرد الهوى على غير بصيرة ، بإطراحه ومنابذته ، ونسبوا مملیه إلى ضلال وإضلال . ونبذوا قراءه ومنتحليه بزيغ في الشريعة ، واختلال ، فإلى الله انصرافهم ومآبهم ، وعليه في العرض الأكبر إيقافهم وحسابهم : ﴿سَتُكْتَبُ شَهَادَتُهُمْ وَيُسْأَلُونَ﴾ (الزخرف : 19) ﴿وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ﴾ (الشعراء : 227) ﴿بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ﴾ (يونس : 39) ﴿وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا بِهِ فَسَيَقُولُونَ هَذَا إِفْكٌ قَدِيمٌ﴾ (الأحقاف : 11) ﴿وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُولِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ﴾ (النساء : 83) ولكن الظالمون في شقاق بعيد ، ولا عجب فقد غوى أدلاء الطريق ، وذهب أرباب التحقيق ، ولم يبق في الغالب إلا أهل الزور والفسوق متشبثين بدعاوى كاذبة ، متصفين بحكايات موضوعة ، متزينين بصفات منمقة متظاهرين بظواهر من العلم فاسدة ، متعاطين لحجج غير صادقة ؛ كل ذلك لطلب الدنيا أو محبة ثناء أو مغالبة نظراء ، قد ذهبت المواصلة بينهم بالبر ، وتألفوا جميعاً على المنكر ، وعدمت النصائح بينهم في الأمر ، وتصافوا بأسرهم على الخديعة ، والمكر ، إن نصحتهم العلماء أغروا بهم ، وإن صمت عنهم العقلاء أزروا عليهم ، أولئك الجهال في علمهم الفقراء في طولهم ، البخلاء عن الله عَزَّ وَجَلَّ بأنفسهم لا يفلحون ، ولا ينجح تابعهم ، ولذلك لا تظهر عليهم مواريث الصدق ، ولا تسطع حولهم أنوار الولاية ، ولا تحقق لديهم أنوار المعرفة ، ولا يستر عوراتهم لباس الخشية لأنهم لم ينالوا أحوال النقباء ومراتب النجباء ، وخصوصية البدلاء ، وكرامة الأوتاد ، وفوائد الأقطاب ، وفي هذه أسباب السعادة وتتمة الطهارة ، لو عرفوا أنفسهم لظهر لهم الحق ، وعلموا علة أهل الباطل وداء أهل الضعف ودواء أهل القوة ، ولكن ليس هذا من بضائعهم ، حجبوا عن الحقيقة بأربع : بالجهل والإصرار ومحبة الدنيا وإظهار الدعوى ، فالجهل أورثهم السخف ، والإصرار أورثهم التهاون ، ومحبة الدنيا أورثتهم طول الغفلة ، وإظهار الدعوى أورثهم الكبر والإعجاب والرياء : ﴿وَاللَّهُ مِنْ وَرَائِهِمْ مُحِيطٌ﴾ (البروج : 20) ﴿وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ (سبأ : 47) . فلا يغرنك أعاذنا الله وإياك من أحوالهم وشأنهم ، ولا يشغلنك عن الاشتغال بصلاح نفسك تمردهم وطغيانهم ، ولا يغوينك بما زين لهم من سوء أعمالهم شيطانهم فكأن قد جمع الخلائق في صعيد ﴿وَجَاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَعَهَا سَائِقٌ وَشَهِيدٌ﴾ (ق : 21) وتلا : ﴿لَقَدْ كُنْتَ فِي غَفْلَةٍ مِنْ هَذَا فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ﴾ (ق : 22) فياله من موقف قد أذهل ذوي العقول عن القال

والقيل ، ومتابعة الأباطيل ، ﴿وَأَعْرِضْ عَنِ الجَاهِلِينَ﴾ (الأعراف : 199) ولا تطع كل أفاك أثيم ﴿وَإِنْ كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنِ اسْتَطَعْتَ أَنْ تَبْتَغِيَ نَفَقاً فِي الأَرْضِ أَوْ سُلَّماً فِي السَّمَاءِ فَتَأْتِيَهُمْ بِآيَةٍ وَلَوْ شَاءَ اللهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الهُدَى فَلا تَكُونَنَّ مِنَ الجَاهِلِينَ﴾ (الأنعام : 35) ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ (هود : 118) ﴿وَاصْبِرْ حَتَّى يَحْكُمَ اللهُ وَهُوَ خَيْرُ الحَاكِمِينَ﴾ (يونس : 109) ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلا وَجْهَهُ لَهُ الحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ (القصص : 88) ولقد جئتك بحول الله وقوته ، وبعد استخارته عما سألت عنه وخاصة ما زعمت فيه من تخصيص الكلام بالمثل الذي ذكر فيه الأقلام إذ قد اتفق أن يكون أشهر ما في الكتاب وأكثر تصرفا على ألسنة الصدور والأصحاب ، حتى لقد صار المثل المذكور في المجالس تحية الداخل وحديث الجالس ، فساعدتنا أمنيتك ولولا العجلة والاشتغال لأضفنا إلى إملائنا هذا بياناً غيره مما عدوه مشكلاً ، وصار لعقولهم الضعيفة مخبلاً ومضللاً ، ونحن نستعيذ بالله من الشيطان ، ونستعصم به من جراءة فقهاء الزمان ونتضرع إليه في المزيد من الإحسان ، إنه الجواد المنان .

ذكر مراسم الأسئلة في المثل

ذكرت رزقك الله ذكره وجعلك تعقل نهيه وأمره ، كيف جاز انقسام التوحيد على أربعة مراتب ، ولفظة التوحيد تنافي التقسيم في المشهود كما ينافي التكرير التعديد ، وإن صح انقسامه على وجه لا يندفع ، فهل تصح تلك القسمة فيما يوجد ، أو فيما يقدر ورغبت مزيد البيان في تحقيق كل مرتبة ، وانقسام طبقات أهلها فيها ، إن كان يقع بينهم التفاوت ، وما وجه تمثيلها بالجوز في القشور واللبوب ، ولِمَ كان الأول لا ينفع ، والآخر الذي هو الرابع لا يحل إفشاؤه ؟ وما معنى قول أهل الشأن : إفشاء سر الربوبية كفر ، أين أصل ما قالوه في الشرع ؟ إذ الإيمان والكفر ، والهداية والضلال ، والتقريب والتبعيد ، والصديقية وسائر مقامات الولاية ، ودركات المخالفة إنما هي مآخذ شرعية ، وأحكام نبوية ، وكيف يتصور مخاطبة العقلاء الجمادات ، ومخاطبة الجمادات للعقلاء ، وبماذا تسمع تلك المخاطبة أبحاسة الآذان ، أم بسمع القلب ؟ وما الفرق بين القلم المحسوس والقلم الإلهي ؟ وما حد عالم الملك وعالم الجبروت ، وحد عالم الملكوت ؟ وما معنى أن الله تعالى خلق آدم على صورته ؟ وما الفرق بين الصورة الظاهرة التي يكون معتقدها منزهاً مجللاً ؟ وما معنى الطريق ﴿في﴾ ، فإنك بالوادي المقدس طوى ؟ ولعله ببغداد أو أصفهان أو نيسابور أو طبرستان في غير الوادي الذي سمع فيه موسى عليه السلام كلام الله تعالى ؟ وما معنى ﴿فاستمع﴾ بسرّ قليل لما يوحى ؟ وهل يكون سماع القلب بغير سره ؟ وكيف يسمع لما يوحى من ليس بنبي ؟ أذلك على طريق التعميم أم على سبيل التخصيص ؟ ومن له بالتسلق إلى مثل ذلك المقام حتى يسمع أسرار الإله ، وإن كان على سبيل التخصيص والنبوة ليست محجوزة على أحد إلا على من قصر عن سلوك تلك الطريق ، وما يسمع في النداء إذا سمع . أَهَلْ أسمع موسى أو أسمع نفسه ؟ وما معنى الأمر للسالك بالرجوع من عالم القدرة ونهيه عن أن يتخطى رقاب الصديقين ؟ وما الذي أوصله إلى مقامهم وهو في المرتبة الثالثة وهي توحيد المقربين ؟ وما معنى انصراف السالك بعد وصوله إلى ذلك الرفيق ؟ وإلى أين وجهته في الانصراف وكيف صفة انصرافه ؟ وما الذي يمنعه من البقاء في الموضع الذي

وصل إليه وهو أرفع من الذي خلفه ؟ وأين هذا من قول أبي سليمان الداراني المذكور في غير الإحياء : لو وصلوا ما رجعوا ما وصل من رجع ؟ وما معنى بأن ليس في الإمكان أبدع من صورة هذا العالم ، ولا أحسن ترتيباً ، ولا أكمل صنعاً ؟ ولو كان وادخره مع القدرة عليه كان ذلك بخلاً يناقض الجود ، وعجزاً يناقض القدرة الإلهية ، وما حكم هذه العلوم المكنونة ، هل طلبها فرض ومندوب إليه ، أو غير ذلك ؟ ولم كسيت المشكل من الألفاظ ، واللغز من العبارات ؟ وإن جاز ذلك للشارع فيما له أن يختبر به ويمتحن فما بال من ليس شارعاً ، انتهى جملة مراسم الأسئلة في المثل . فأسأل الله أن يملي علينا ما هو الحق عنده في ذلك ، وأن يجري على ألسنتنا ما يستضاء به في ظلمات المسالك ، وأن يعم بنفعه أهل المبادي والمدارك ، ثم لا بد أن أمهد مقدمة وأؤكد قاعدة ، وأؤكد وصية .

أما المقدمة : فالغرض منها تبين عبارات انفرد بها أرباب الطريق تغمض معانيها على أهل القصور ، فنذكر ما يغمض منها ، ونذكر المقصد بها عندهم ، فرب واقف على ما يكون من كلامنا مختصاً بهذا الفن في هذا ، وغيره ، فيتوقف عليه فهم معناه من جهة اللفظ .

وأما القاعدة : فنذكر فيها الاسم الذي يكون سلوكنا في هذه العلوم عليه ، والسمت الذي ننوي بمقصدنا إليه ، ليكون ذلك أقرب على المتأمل وأسهل على الناظر المتفهم .

وأما الوصية : فنقصد فيها تعريف ما علا من نظر في كلام الناس وآخذ نفسه بالإطلاع على أغراضهم فيما ألفوه ، من تصانيفهم وكيف يكون نظره فيها وإطلاعه عليها واقتباسه منها ، فذلك أؤكد عليه أن يتعلمه من ظهورها ، فشردوا عنها ، وغلقت في وجوههم الأبواب ، وأسدل دونهم الحجاب ، ولو أتوها من أبوابها بالترحيب ، وولجوا على الرضا بالحبيب ، لكشف لهم كثير من حجب الغيوب ، ﴿وَاللهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ (النور : 46) .

المقدمة

اعلم أن الألفاظ المستعملة ، منها ما يستعمله الجماهير والعموم ، ومنها ما يستعمله أرباب الصنائع ، والصنائع على ضربين ، عملية وعلمية ، فالعملية كالمهن والحرف ، ولأهل كل صناعة منهم ألفاظ يتفاهمون بها آلاتهم ، ويتعاطون أصول صناعتهم ، والعلمية هي العلوم المحفوظة بالقوانين المعدلة ، بما تحرر من الموازين ، ولأهل كل علم أيضاً ألفاظ اختصوا بها لا يشاركهم فيها غيرهم ، إلا أن يكون ذلك بالاتفاق من غير قصد ، وتكون المشاركة إذا اتفقت إما في صورة اللفظ دون المعنى أو في المعنى وصورة اللفظ جميعاً ، وهذا يعرفه من بحث عن مجاري الألفاظ عند الجمهور ، وأرباب الصنائع ، وإنما سمينا من العلوم صنائع ما قصد فيها التصنع بالترتيب في التقسيم ، واختيار لفظ دون غيره ، وحد بطرفين ، ومبدأ وغاية ، وما لم يكن كذلك فلا نسميه صناعة ، كعلوم الأنبياء صلوات الله عليهم والصحابة رضي الله عنهم ، فإنهم لم يكونوا فيما عندهم من العلم على طريق من بعدهم ولا كانت العلوم عندهم بالرسم الذي هو عند من خلفهم ، ومثل ذلك علوم العرب ولسانها ، لا نسميها عندهم صناعة ونسميها بذلك عند ضبطها ، بما اشتهر من القوانين

وتقرر من الحصر والترتيب ، ولأرباب العلوم الروحانية وأهل الإشارات إلى الحقائق والمسلمين بالسادة ، والملقبين بالصوفية ، والمتشبهين بالفقراء ، والمعروفين بالرقة ، والمعزي إليهم ، والعلم والعمل ألفاظ جرى رسمهم بالتخاطب بها ، فيما يتذاكرون أو يذكرونه ، ونحن إن شاء الله نذكر ما يغمض منها ، إذ قد يقع منا عندما نذكر شيئاً من علومهم ، ونشير إلى غرض من أغراضهم ، فلم نر أن يكون ذلك بغير ما عرف من ألفاظهم وعباراتهم ، ولا حرج في ذلك عقلاً وشرعاً ، ونحن بحكم مصرف التقدير وهو على كل شيء قدير .

فمن ذلك السفر ، والمسافر ، والحال ، والمقام ، والمكان ، والشطح ، والطوالع ، والذهاب ، والنفس ، والسر والوصل والفصل ، والأدب ، والرياضة ، والتحلي ، والتجلي ، والعلة والانزعاج ، والمشاهدة ، والمكاشفة ، واللوائح ، والتلوين ، والغيرة ، والحرية واللطيفة ، والفتوح ، والوسم والرسم ، والبسط ، والقبض ، والفناء ، والبقاء ، والجمع ، والتفرقة ، وعين التحلم ، والزوائد والإرادة ، والمريد ، والمراد ، والهمة والغربة ، والمكر ، والاصطلام ، والرغبة ، والرهبة ، والوجد والوجود ، والتواجد ، فنذكر شرح هذه على أوجز ما يمكن ، بمشيئة الله تعالى ، وإن كانت ألفاظهم المصرفة بينهم في علومهم أكثر مما ذكرنا ، فإنما قصدنا أن نريك منها أنموذجاً ودستوراً تتعلم به إذا طرأ عليك ما لم نذكره لك هاهنا ، إذ لها مبحث وإليها سبيل فتطلبه بعد ذلك على وجهه .

فأما السَّفر والطريق : فالمراد بهما سَفر القلب بآلة الفكر في طريق المعقولات وعلى ذلك ابتنى لفظ السالك والمسافر في لغتهم ، ولم يرد بذلك سلوك الأقدام التي بها يقطع مسافات الأجسام ، فإن ذلك مما شاركه فيه البهائم والأنعام ، وأول مسالك السفر إلى الله تعالى عَزَّ وَجَلَّ معرفة قواعد الشرع ، وخرق حجب الأمر والنهي ، وتعلق الغرض فيها ، والمراد بها ومنها فإذا خلفوا نواحيها ، وقطعوا معاطنها ، أشرفوا على مفاوز أوسع ، وبرزت لهم مهامه ، أعرض وأطول من ذلك معرفة أركان المعارف النبوية ، النفس والعدو والدنيا ، فإذا تخلصوا من أو عارها أشرفوا على غيرها أعظم منها في الانتساب ، وأعرض بغير حساب ، من ذلك سر القدر ، وكيف خفي بحكم في الخلائق ، وقادهم بلطف في عنف ، وشدة في لين ، وبقوة في ضعف ، وباختيار في جبر ، إلى ما هو في مجاريه لا يخرج المخلفون عنه طرفة عين ، ولا يتقدمون ولا يتأخرون عنه ، والإشراف على الملكوت الأعظم ، ورؤية عجائب ومشاهدة غرائب ، مثل العلم الإلهي واللوح المحفوظ ، واليمين الكاتبة ، وملائكة الله يطوفون حول العرش ، بالبيت المعمور وهم يسبحونه ، ويقدسونه وفهم كلام المخلوقات من الحيوانات والجمادات ، ثم التخطي منها إلى معرفة الخالق للكل ، والمالك للجميع ، والقادر على كل شيء ، فتغشاهم الأنوار المحرقة ، ويتجلى لمرآة قلوبهم الحقائق المحتجبة ، فيعلمون الصفات ويشاهدون الموصوف ، ويحضرون حيث غاب أهل الدعوى ، ويبصرون ما عمي عنه أولو الأبصار الضعيفة بحجب الهوى .

والحال : منزلة العبد في الحين فيصفو له في الوقت حاله ووقته وقيل هو ما يتحول فيه العبد ، ويتغير مما يرد على قلبه ، فإذا صفا تارة وتغير أخرى قيل له حال ، وقال بعضهم ، الحال لا يزول فإذا زال لم يكن حالاً .

والمقام : هو الذي يقوم به العبد في الأوقات من أنواع المعاملات وصنوف المجاهدات ، فمتى أقيم

العبد بشيء منها على التمام والكمال فهو مقامه ، حتى ينقل إلى غيره .

والمكان : هو لأهل الكمال والتمكين والنهاية ، فإذا كمل العبد في معانيه فقد تمكن من المكان وغير المقامات والأحوال ، فيكون صاحب مكان كما قال بعضهم :

مكانك من قلبي هو القلب كله فليس لشيء فيه غيرك موضع

والشطح : كلام يترجم به اللسان عن وجد يفيض عن معدنه ، مقرون بالدعوى إلا أن يكون صاحبه محفوظاً .

والطوالع : أنواع التوحيد يطلع على قلوب أهل المعرفة شعاعها ، فيطمس سلطان نورها الألوان ، كما أن نور الشمس يمحو أنوار الكواكب .

والذهاب : هو أن يغيب القلب عن حس كل محسوس بمشاهدة محبوبها .

والنفس : روح سلطه الله على نار القلب ليطفىء شرها .

والسر : ما خفي عن الخلق فلا يعلم به إلا الحق ، وسر السر ما لا يحس به السر ، والسر ثلاثة : سر العلم ، وسر الحال ، وسر الحقيقة ، فسر العلم حقيقة العالمين بالله عَزَّ وَجَلَّ ، وسر الحال معرفة مراد الله في الحال من الله ، وسر الحقيقة ما وقعت به الإشارة .

والوصل : إدراك الفائت .

والفصل : فوت ما ترجوه من محبوبك .

والأدب : ثلاثة ، أدب الشريعة وهو التعلق بأحكام العلم بصحة عزم الخدمة .

والثاني : أدب الخدمة وهو التشمر عن العلامات والتجرد عن الملاحظات .

والثالث : أدب الحق وهو موافقة الحق بالمعرفة .

والرياضة : اثنان . رياضة الأدب وهو الخروج عن طبع النفس ، ورياضة الطلب وهو صحة المراد .

والتحلي : التشبه بأحوال الصادقين بالأحوال وإظهار الأعمال .

والتخلي : اختيار الخلوة والأعراض عن كل ما يشغل عن الحق .

والتجلي : هو ما ينكشف للقلوب من أنوار الغيوب .

والعلة : تنبه عن الحق .

والانزعاج : انتباه القلب من سنة الغفلة والتحرك للأنس والوحدة .

والمشاهدة : ثلاثة . مشاهدة بالحق وهي رؤية الأشياء بدلائل التوحيد ، ومشاهدة للحق وهي رؤية الحق في الأشياء ، ومشاهدة الحق وهي حقيقة اليقين بلا ارتياب .

والمكاشفة : أتم من المشاهدة وهي ثلاثة ، مكاشفة بالعلم : وهي تحقيق الإصابة بالفهم ، ومكاشفة بالحال : وهي تحقيق رؤية زيادة الحال ، ومكاشفة بالتوحيد : وهي تحقيق صحة الإشارة .

واللوائح : ما يلوح من الأسرار الظاهرة الصافية من السمو من حالة إلى حالة أتم منها ، والارتقاء من درجة إلى ما هو أعلى منها .

والتلوين : تلوين العبد في أحواله ، وقالت طائفة : علامة الحقيقة رفع التلوين بظهور الاستقامة ، وقال آخرون : علامة الحقيقة التلوين لأنه يظهر فيه قدرة القادر ، فيكسب منه العبد الغيرة .

والغيرة : غيرة في الحق ، وغيرة على الحق ، وغيرة من الحق ، فالغيرة في الحق : برؤية الفواحش والمناهي ، والغيرة على الحق : هي كتمان السرائر ، والغيرة من الحق : ضنه على أوليائه .

والحرية : إقامة حقوق العبودية فتكون لله عبداً وعند غيره حراً .

واللطيفة : إشارة دقيقة المعنى تلوح في الفهم ولا يسعها العبارة .

والفتوح : ثلاثة ، فتوح العبادة في الظاهر : وذلك سبب إخلاص القصد ، وفتوح الحلاوة في الباطن : وهو سبب جذب الحق بإعطافه ، وفتوح المكاشفة وهو سبب المعرفة بالحق .

والوسم والرسم : معنيان يجريان في الأبد بما جريا في الأزل .

والبسط : عبارة عن حال الرجاء .

والقبض : عبارة عن حال الخوف .

والفناء فناء المعاصي ، ويكون فناء رؤية العبد لفعله بقيام الله تعالى على ذلك .

والبقاء : بقاء الطاعات ، ويكون بقاء رؤية العبد قيام الله سبحانه على كل شيء .

والجمع : التسوية في أصل الخلق ، وعن آخرين معناه إشارة من أشار إلى الحق بلا خلق .

والتفرقة : إشارة إلى اللون والخلق ، فمن أشار إلى تفرقة بلا جمع فقد جحد الباري سبحانه ، ومن أشار إلى جمع بلا تفرقة فقد أنكر قدرة القادر ، وإذا جمع بينهما فقد وجد .

عين التحلم : إظهار غاية الخصوصية بلسان الانبساط في الدعاء .

والزوائد : زيادات الإيمان بالغيب واليقين .

والإرادات : ثلاثة . إرادة الطالب من الله سبحانه وتعالى : وذلك موضع التمني ، وإرادة الحظ منه : وذلك موضع الطمع ، وإرادة الله سبحانه : وذلك موضع الإخلاص .

والمريد : هو الذي صح له الابتلاء ودخل في جملة المنقطعين إلى الله عَزَّ وَجَلَّ بالاسم .

والمراد : هو العارف الذي لم يبق له إرادة وقد وصل إلى النهاية وغير الأحوال والمقامات .

والهمة : ثلاثة . همة مُنية : وهي تحرك القلب للمنى ، وهمة إرادة وهي أول صدق المريد ، وهمة حقيقة القصور عن ملاحظة ذروة هذا الأمر والجهل . فإن الأمر إدٌّ والخطب جدٌّ ، والآخرة مقبلة . والدنيا مدبرة ، والأجل قريب ، والسفر بعيد ، والزاد طفيف ، والخطر عظيم ، والطريق سد ، وما سوى الخالص لوجه الله من العلم والعمل عند الناقد البصير رد ، وسلوك طريق الآخرة مع كثرة الغوائل من غير دليل ولا رفيق متعب ومكد ، فأدلة الطريق هم العلماء الذين هم ورثة الأنبياء وقد شغر منهم الزمان ولم يبق إلا المتمرسون ، وقد استحوذ على أكثرهم الشيطان واستغواهم الطغيان وأصبح كل واحد بعاجل حظه مشغوفاً ، فصار يرى المعروف منكراً ، والمنكر معروفاً ، حتى ظل علم الدين مندرساً ، ومنار الهدى في أقطار الأرض منطمساً ، وقد خيلوا إلى الخلق أن لا علم إلا فتوى حكومة تستعين به القضاة على فصل الخصام ، عند تهاوش الطغام أو جدل يتدرع به طالب المباهاة إلى الغلبة والإفحام ، أو سجع مزخرف

يتوسل به الواعظ إلى استدراج العوام ، إذ لم يروا ما سوى هذه الثلاثة مصيدة للحرام ، وشبكة للحطام ، فأما علم طريق الآخرة وما درج عليه السلف الصالح ، وهي جمع الهمم بصفاء الإلهام .

والغربة : ثلاثة . غربة عن الأوطان من أجل حقيقة القصد ، وغربة عن الأحوال من حقيقة التفرد بالأحوال ، وغربة عن الحق من حقيقة الدهش عن المعرفة .

والاصطلام : نعت وَله يردُ على القلوب بقوة سلطان فيستكنها .

والمكر ثلاثة : مكر عموم : وهو الظاهر في بعض الأحوال ، ومكر خصوص : وهو في سائر الأحوال ، ومكر خفي في إظهار الآيات والكرامات .

والرغبة ثلاثة : رغبة في نفس الثواب ، ورغبة القلب في الحقيقة ، ورغبة السر في الحق .

والرهبة : رهبة الغيب لتحقيق أمر السبق .

والوجد : مصادفة القلب بصفاء ذكر كان قد فقده .

والوجود : تمام وجد الواجدين وهو أتم الوجد عندهم ، وسئل بعضهم عن الوجد فقال : الوجد ما تطلبه فتجده بكسبك واجتهادك ، والوجود ما تجده من الله الكريم ، والوجد عن غير تمكين والوجود مع التمكين .

والتواجد : استدعاء الوجود . والتشبه في تكلفه بالصادقين من أهل الوجد .

القاعدة : وأما القاعدة التي ينبني عليها هذا الفن بأسره ، فذلك اجتذاب أرواح المعاني والإشارة إلى البعد في القرب ، قصد الاستدلال بالأقوال والأعمال والأحوال على الله تعالى ، قصداً ذاتياً لا على ما سلكته أرباب علوم الظاهر ، ثم التصديق بالقوة والنظر إلى الملكوت من كوة ، ومعرفة العلوم في الانصراف ومصاحبة القدر بالمساعدة ، وبالمعروف ومعاطاة الوجودات الخمس ، الذاتي والحسي ، والخيالي ، والعقلي ، والشبهي حسبما فهم من الشرع ، وثبت معناه في المحفوظ من الوحي ، وقلما أدرك شيء من العجز ، والعلم لا ينال براحة الجسم : ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللهَ يَجْعَلْ لَهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْراً * ذَلِكَ أَمْرُ اللهِ أَنزَلَهُ إِلَيْكُمْ﴾ (الطلاق : 4 ، 5) ﴿وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ فَهُوَ حَسْبُهُ إِنَّ اللهَ بَالِغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْراً﴾ (الطلاق : 3) .

والوصية

أيها الطالب للعلوم ، والناظر في التصاريف ، والمستشرف على كلام الناس ، وكتب الحكمة ، ليكن نظرك فيما تنظر فيه بالله ، ولله ، وفي الله ، لأنه إن لم يكن نظرك به ، وكلك إلى نفسك ، أو إلى من جعلت نظرك به أياً كان غيره ، من فهم ، أو علم أو حفظ أو إمام متبع ، أو صحة ميز ، أو ما شاكل ذلك ، وكذلك إن لم يكن نظرك له فقد صار علمك لغيره ، ونكصت على عقبيك ، وخسرت في الدارين صفقتك ، وعاد كل هول عليك : ﴿فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحاً وَلا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَداً﴾ (الكهف : 110) وكذلك إن لم يكن نظرك فيه فقد أثبت معه غيره ، ولاحظت بالحقيقة سواه ، ورؤية غيره دونه تعمي القلب وتهتك الستر ، وتحجب اللب وإذا نظرت في كلام أحد من الناس ، ممن قد شهر بعلم فلا تنظره بازدراء كمن يستغنى عنه في الظاهر ، وله إليه كثير حاجة في

الباطن ، ولا تقف به حيث وقف به كلامه فالمعاني أوسع من العبارات ، والصدور أفسح من الكتب المؤلفات ، وكثير علم مما لم يعبر عنه ، وأطمح بنظر قلبك في كلامه إلى غاية ما يحتمل ، فذلك يعرفك قدره ويفتح باب قصده ، ولا تقطع له بصحة ، ولا تحكم عليه بفساد ، ولكن تحسين النظر أغلب عليك فيه ، حتى يزول الإشكال عنك ، بما تتيقن من معانيه ، وإذا رأيت له حسنة وسيئة فانشر الحسنة ، واطلب المعاذير للسيئة ، ولا تكن كالذبابة تنزل على أقذر ما تجده ، ولا تعجل على أحد بالتخطئة ، ولا تبادر بالتجهيل فربما عاد عليك ذلك وأنت لا تشعر ، فلكل عالم عورة ، وله في بعض ما يأتي به احتجاج ، وناهيك ما جرى بين ولي الله الخضر وكليمه موسى ، على نبينا وعليهما السلام ، وإذا عرض لك من كلام عالم إشكال يؤذن في الظاهر بمحال ، أو اختلال ، فخذ ما ظهر لك علمه ، ودع ما اعتاص عليك فهمه ، وكِل العلم فيه إلى الله عَزَّ وَجَلَّ ، فهذه وصيتي لك ، فاحفظها ، وتذكيري إياك فلا تذهل عنه .

اسمع وصيتي إن تحفظ حظيت بها وإن تخالف فقد يردى بك الخُلف

وأزيدك زيادة تقتضي التعريف بأصناف العلماء ، لكي يعرف أهل الحقيقة من غيرهم ، فلك في ذلك أكبر منفعة ، ولي في وصفهم أبلغ غرض ، قال علماؤنا : العلماء ثلاثة . حجة ، وحجاج ، ومحجوج ، فالحجة : عالم بالله وبأمره وبآياته ، ومهتماً بالخشية لله سبحانه ، والورع في الدين ، والزهد في الدنيا ، والإيثار لله عَزَّ وَجَلَّ ، والحجاج : مدفوع إلى إقامة الحجة ، وإطفاء نار البدعة ، قد أخرس المتكلمين وأفحم المتخرصين ، وبرهانه ساطع ، وبيانه قاطع ، وحفظه ما ينازع ، وشواهده بينة ، ونجومه نيرة ، قد حمى صراط الله المستقيم ، والمحجوج : عالم بالله ، وبأمره ، وبآياته ولكنه فقد الخشية لله برؤيته لنفسه ، وحجبه عن الورع والزهد في الدنيا ، والرغبة والحرص ، وبعده من بركات علمه محبة العلو والشرف ، وخوف السقوط والفقر ، فهو عبد لعبيد الدنيا ، خادم لخدمها ، مفتون بعد علمه ، مغتر بعد معرفته ، مخذول بعد نصرته ، شأنه الاحتقار لوجه الله ، والازدراء لأوليائه ، والاستحلاف بالجهال من عباده ، وفخره بلقاء أميره ، وصلة سلطانه ، وطاعة القاضي والوزير والحاجب له ، قد أهلك نفسه حين لم ينتفع بعلمه ، والإتباع له ، ومن يكون بعده قدوة به ، ومراده من الدنيا مثله في مثل هذا ضرب الله المثل حين قال : ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الغَاوِينَ * وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الكَلْبِ إِنْ تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَثْ﴾ (الأعراف : 175 ، 176) فويل لمن صحب مثل هذا في دنياه ، وويل لمن تبعه في دينه ، وهذا هو الذي أكل بدينه ، غير منصف لله سبحانه في نفسه ، ولا ناصح له في عباده ، تراه إن أعطي من الدنيا رضي بالمدحة لمن أعطاه ، وإن منع رُش بالدم لمن منعه ، وقد نسي من قسم الأرزاق ، وقدّر الأقدار ، وأجرى الأسباب ، وفرغ من الخلق كلهم ، فنعوذ بالله من الحور بعد الكور ، ومن الضلالة بعد الهدى ، وإنما زدتك هذه الزيادة وإن ظهر لكثير أنها ليست من الغرض الذي نحن فيه ، فقصدي أن يعلم من ذهب من الناس ، ومن بقي ، ومن أبصر الحقائق ، ومن عمي ، ومن اهتدى على الصراط المستقيم ، ومن غوى فليعلم أن الصنفين الأولين من العلماء قد ذهبوا ، وإن كان بقي منهم أحد فهو غير محسوس للناس ولا مدرك بالملاحظة .

غاب الذين إذا ما حدثوا صدقوا وظنهم كيقين إن هم حدسوا

وذلك لما سبق في القضاء من ظهور الفساد ، وعدم أهل الصلاح والرشاد ، نعم . وعدم الصنف الثالث على غربته ، وأعز شيء على وجه الأرض وفي الغالب ما يقع عليه في الحقيقة اسم علم عند شخص مشهور به ، وإنما الموجود اليوم أهل سخافة ودعوى وحماقة ، واجتراء وعجب بغير فضيلة ، ورياء ، يحبون أن يحمدوا بما لم يفعلوا ، وهم أكبر من عمّر الأرض وصيروا أنفسهم أوتاد البلاد ، وأرسان العوام ، وهم خلفاء إبليس وأعداء الحقائق ، وأخدان لعوائد السوء ، وعنهم يرد عتب الحكم الشائعة وانتقاض أهل الإرادة والدين .

مثل البهائم جهال بخالقهم لهم تصاوير لم يعرف لهن حجا
كل يروم على مقدار حيلته زوائر الأسد والنباحة اللهثا

(فَاحْذَرْهُمْ قَاتَلَهُمُ اللهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ﴾ (المنافقون : 4) ﴿اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللهِ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (المنافقون : 2) ﴿أُولَئِكَ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الغَافِلُونَ﴾ (الأعراف : 179) .

أولوا النفاق فإن قلت أصدقوا كذبوا من السفاه وإن قلت أكذبوا صدقوا

ولنأخذ في جواب ما سألت عنه ، على نحو ما رغبت فيه ، واستوهب الله نفوذ البصيرة ، وحسن السريرة ، وغفران الجريرة ، وهو ربي ورب كل شيء وإليه المصير .

ابتداء الأجوبة عن مراسم الأسئلة

جرى الرسم في الإحياء بتقسيم التوحيد على أربع مراتب تشبيهاً لموافقة الغرض في التمثيل به ، وذكرت أن المعترض وسوس ، أو بالخواطر هجس ، بأن لفظ التوحيد ينافي التقسيم ، إذ لا يخلو بأن يتعلق بوصف الواحد الذي ليس بزائد عليه ، فذلك لا ينقسم لا بالجنس ولا بالفصل ولا بغير ذلك ، وإما أن يتعلق بوصف المكلفين الذين توجب لهم حكمه إذا وجد فيهم ، فذلك أيضاً لا ينقسم من حيث انتسابهم إليه بالعقل : وذلك لضيق المجال فيه . ولهذا لا يتصور فيه مذاهب ، وإنما التوحيد مسلك حق بين مسلكين باطلين ، أحدهما : الشرك ، والثاني : الإلباس ، وكلا الطرفين كفر والوسط إيمان محض وهو أحد من السيف ، وأضيق من خط الظل ، ولهذا قال أكثر المتكلمين : بتماثل إيمان جميع المؤمنين والملائكة والنبيين والمرسلين وسائر عموم المرسلين ، وإنما تختلف طرق إيمانهم التي هي علومهم ، ومذهبهم في ذلك معروف ، ونحن لا نلم في هذه الإجابة كلها بشيء من أنحاء الجدال ، ومقابلة الأقوال بالأقوال ، بل بقصد إزالة غبر الإشكال ، ورد ما طعن به أهل الضلال والإضلال .

واعلم أن التقسيم على الإطلاق يستعمل على أنحاء يتوجه هاهنا بشيء قدح به المعترض ، أو هجس به الخاطر ، وإنما المستعمل هاهنا من أنحائه ما تتميز به بعض الأشخاص ، بما اختصت به من الأحوال ، وكل حالة منها تسمى توحيداً ، على جهة تنفرد بها ، لا يشاركها فيها غيرها ، فمن وجد التوحيد بلسانه يسمى لأجله موحداً ما دام يظن أن قلبه موافق للسانه ، وإن علم منه خلاف ذلك سلب عنه الاسم وأقيم عليه ما

شرع في الحكم ، ومن وجد بقلبه على طريق الركون إليه ، والميل إلى اعتقاده والسكون نحوه بلا علم يصحبه فيه ، ولا برهان يربط به سمي أيضاً موحداً ، على معنى أنه يعتقد التوحيد ، كما يسمى من يعتقد مذهب الشافعي شافعياً ، والحنبلي حنبلياً ، ومن رزق علم التوحيد وما يتحقق به عنده ، وسعى من أجله بشكوكه العارضة له ، فيسمى موحداً ، لأنه عارف به ، يقال جدلي ونحوي فقيه ، ومعناه يعرف الجدل والفقه والنحو .

وأما من استغرق علم التوحيد قلبه ، واستولى على جملته حتى لا يجد فيه فضلاً لغيره ، إلا على طريق التبعية له ، ويكون شهود التوحيد لكل ما عداه ، سابقاً له مع الذكر والفكر مصاحباً من غير أن يعتريه ذهول ولا نسيان له ، لأجل اشتغاله بغيره كالعادة في سائر العلوم ، فهذا يسمى موحداً ، ويكون القصد بالمسمى من ذلك المبالغة فيه .

فأما الصنف الأول : وهم أرباب النطق المفرد ، فلا يضربون في التوحيد بسهم ، ولا يفوزون منه بنصيب ، ولا يكون لهم شيء من أحكام أهله في الحياة إلا ما دام الظن بهم أن قلب أحدهم موافق للسانه ، كما يفرد القول عليه بعد هذا إن شاء الله عَزَّ وَجَلَّ .

وأما الصنف الثاني : وهم أرباب الاعتقاد الذين سمعوا النبي ﷺ أو الوارث أو المبلغ ، يخبر عن توحيد الله عَزَّ وَجَلَّ ، أو يأمر به ، ويلزم البشر قول لا إله إلا الله المنبىء عنه ، فقبلوا ذلك ، واعتقدوا على الجملة ، من غير تفصيل ولا دليل ، فنسبوا إلى التوحيد ، وكانوا من أهله بمنزلة مولى القوم الذي هو منهم ، وبمنزلة من كثر سواد قوم فهو منهم .

وأما الصنف الثالث والرابع : فهم أرباب البصائر السليمة ، الذين نظروا بها إلى أنفسهم ، ثم إلى سائر أنواع المخلوقات فتأملوها ، فرأوا ، على كل منها خطاً منطبعاً فيها ، ليس بعربي ، ولا سرياني ، ولا عبراني ، ولا غير ذلك من أجناس الخطوط ، فبادر إلى قراءته من لم يستعجم عليه ، وتعلمه منهم من استعجم عليه ، فإذا هو الخط الإلهي المكتوب على صفحة كل مخلوق ، المنطبع فيه من مركب ومفرد ، وصفة وموصوف ، وحي ، وجامد ، وناطق وصامت ، ومتحرك وساكن ، ومظلم ونيّر ، وهو الذي يسمى تارة بعلامة ، وتارة بسِمَة ، وتارة بأثر القدرة ، وتارة بآية ، كما قال الشاعر : ولا أدري عن سماع أو رؤية قلب .

وفي كل شيء له آية تدل على أنــه واحد

فلو قرأوا ذلك الخط وجدوا تفسير ذلك المكتوب عليه ، وشرحه أبدية مالكه والتصريف له بالقدرة على حكم الإرادة بما سبق في ثابت العلم من غير مزيد ولا تقصير ، فتركوا الكتابة والمكتوب ، وترقوا إلى معرفة الكاتب ، الذي أحدث الأشياء وكونها ، ولا يخرج عن ملكه شيء منها ، ولا استغنت بأنفسها عن حوله وقوته ، ولا انتقلت إلى الحرية عن رق استعباده ، فوجدوه كما وصف نفسه : ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ (الشورى : 11) فخلصت لهم التفرقة والجمع ، وعقلت نفس كل واحد منهم توحيد خالقها بإذنه وإيجاده عن غيره وعقلت أنها عقلت توحيده ، فسبحان من يسرها لذلك ، وفتح عليها بما ليس في وسعها أن تدركه إلا به وهو اللطيف الخبير ، لكن الصنف الثالث : لم يقصر كل واحد منهم أن يعرف نفسه موجوداً لديه فيما لا يزال ، وهم المقربون ، والصنف الرابع : لم يقصر كل واحد منهم أن عرف

ربه موجوداً لنفسه فيما لا يزال ، وهم الصديقون ، وبينهما تفاوت كثير .

وأما طريق معرفة صحة هذا التقسيم : فلأن العقلاء بأسرهم لا يخلو كل واحد منهم أن يوجد أثر التوحيد بأحد الأنحاء المذكورة عنده ، فأما من عدمت عنده فهو كافر إن كان في زمن الدعوة ، أو على قرب يمكن وصول علمها إليه ، أو في فترة يتوجه عليه فيها التكليف وهذا الصنف مبعد عن مقام هذا الكلام ، وأما من يوجد عنده فلا يخلو أن يكون مقلداً في عقده ، أو عالماً به ، والمقلدون هم العوام ، وهم أهل المرتبة الثانية في الكتاب ، فأما العلماء بحقيقة عقدهم فلا يخلو كل واحد أن يكون قد بلغ الغاية التي أعدت لصنفه دون النبوة أو لم يبلغ ولكنه قريب من البلوغ . فالذي لم يبلغ وكان على قرب هم المقربون ، وهم أهل المرتبة الثالثة ، والذين بلغوا الغاية التي أعدت لهم ، وهم الصديقون ، وهم أهل المرتبة الرابعة وهذا التقسيم ظاهر الصحة إذ هو دائر بين النفي والإثبات ، ومحصور بين المبادي والغايات ، ولم يدخل أهل المرتبة الأولى في شيء من تصحيح هذا التقسيم إذ ليس هم من أهله إلا بانتساب كاذب ، ودعوى غير صافية ، ثم لا بد من الوفاء بما وعدناك به من إبداء بحث ، ومزيد شرح ، وبسط بيان ، تعرف منه بإذن الله حقيقة كل مرتبة ومقام وانقسام أهله فيه بحسب الطاقة والإمكان ، بما يجري الواحد الحق على القلب واللسان .

بيان مقام أهل النطق المجرد وتمييز فرقهم

فأقول : أرباب النطق المجرد أربعة أصناف ، أحدهم : نطقوا بكلمة التوحيد مع شهادة الرسول ﷺ ، ثم لم يعتقدوا معنى ما نطقوا به ، لما لم يعلموه لا يتصورون صحته ولا فساده ولا صدقه ولا كذبه ولا خطأه ولا صوابه ، إذ لم يبحثوا عليه ولا أرادوا فهمه . إما لبعد همتهم وقلة اكتراثهم ، وإما لنفورهم من التعب وخوفهم أن يكلفوا البحث عما نطقوا به ، أو يبدوا لهم ما يلزمهم من الاعتقاد والعمل ، وما بعد ذلك فإن التزموها فارقوا راحات أبدانهم العاجلة ، وفراغ أنفسهم ، وإن لم يلتزموا شيئاً من ذلك ، وقد حصل لهم العلم فتكون عيشتهم منغصة وملاذهم مكدرة ، من خوف عقاب ترك ما علموا لزومه ، ومثل هؤلاء مثل من يريد قراءة الطب ، أو يعرض عليه ولكنه يمنعه عنه مخافة أن يتطلع منه ، على ما يغير عنه بعض ملاذه من الأطعمة ، والأشربة والأنكحة ، أو كثير منها فيحتاج إلى أن يتركها ، أو يرتكبها على رقيه ، وخوف أن يصيبه صورة ما يعلم ضرورة منها ، فيدع قراءة الطب رأساً ، سئل هذا الصنف عن معنى ما نطقوا به ، وهل اعتقدوه ؟ فيقولون : لا نعلم فيه ما يعتقد ، وما دعانا النطق إلا مساعدة الجماهير ، وانخراطاً بإظهار القول في الجم الغفير ، ولا نعرف هل ما قلناه بالحقيقة من قبل العرف والنكير ، ولا شك أن هذا الصنف الذي أخبر ﷺ عن حاله بمسألة الملكين ، أحدهم في القبر إذ يقولان من ربك ؟ ومن نبيك ؟ وما دينك ؟ فيقول لا أدري سمعت الناس يقولون قولاً فقلته فيقولان له لا دريت ولا تليت ، وسماه النبي ﷺ الشاك والمرتاب .

والصنف الثاني : نطق كما نطق الذين من قبلهم ، ولكنهم أضافوا إلى قولهم ما لا يحصل معه الإيمان ولا ينتظم به معنى التوحيد ، وذلك مثل ما قالت السبابية طائفة من الشيعة القدماء أن علياً هو الإله ، وبلغ أمرهم علياً رضي الله عنه ، وكانوا في زمنه ، فحرق منهم جماعة ، وأمثال من نطق بالشهادتين كثير ، ثم أصحاب نطقه مثل هذا النكير ويسمون الزنادقة ، وقد رأينا حديثاً عنه ﷺ في ذلك : «سَتَفْتَرِقُ أُمَّتِي عَلَى ثَلاثٍ

وسَبْعِينَ فِرْقَةً كُلُّهَا فِي الجَنَّةِ إلا الزَّنَادِقَةَ» .

والصنف الثالث : نطقوا كما نطق الصنفان المذكوران قبلهم ، ولكنهم آثروا التكذيب ، واعتقدوا الرد ، واستنبطوا خلاف ما ظهر منهم ، من الإقرار وإذا رجعوا إلى أهل الإلحاد أعلنوا عندهم بكلمة الكفر ، فهؤلاء المنافقون الذين ذكرهم الله في كتابه بقوله : ﴿وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَى شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ * اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ (البقرة : 14 ، 15) .

والصنف الرابع : قوم لم يعرفوا التوحيد ، وما نشأوا عليه ، ولا عرفوا أهله ، ولا سكنوا بين أظهرهم ، ولكنهم حين وصلوا إلينا أو وصل إليهم أحد منا خوطبوا بالأمر المقتضى للنطق بالشهادتين والإقرار بهما ، فقالوا : لا نعلم مقتضى هذا اللفظ ولا نعقل معنى المأمور به من النطق ، فأمروا أن يظهروا الرضا ويفهموا بلا مهلة فسكنوا إلى ما قيل لهم ، ونطقوا بالشهادتين ظاهراً ، وهم على الجهل بما يعتدون فيها ، فاخترم أحدهم من حينه ، من قبل أن يأتي منه استفهام أو تصور يمكن أن يكون له معه معتقد ، فيرجى أن لا تضيق عنه سعة رحمة الله عَزَّ وَجَلَّ ، والحكم عليه بالنار والخلود فيها مع الكفار ، تحكم على غيب الله سبحانه ، وربما كان من هذا الصنف في الحكم عند الله عَزَّ وَجَلَّ ، قوم رزقوا بعد الفهم وغيب الذهن وفرط البلادة أن يدعوا إلى النطق ، فيجيبوا مساعدة ومحاذاة ، ثم يدعوا إلى تفهم المعنى بكل وجه ، فلا يتأتى منهم قبول لما يعرض عليهم تفهمه ، كأنما تخاطب بهيمة ، ومثل هذا أيضاً في الوجود كثير ، ولا أحكم على أحد مثله بخلود في النار ، ولا بعد أن هذا الصنف بأسره ، أعني المخترم قبل تحصيله العقد مع هذا البليد البعيد بعض ما ذكره النبي ﷺ في حديث الشفاعة ، الذين أخرجهم الله عَزَّ وَجَلَّ من النار بشفاعته ، حين يقول تعالى : فرغت شفاعة الملائكة والنبيين ، وبقيت شفاعتي وهو أرحم الراحمين ، فيخرج من النار أقواماً لم يعملوا حسنة قط ، ويدخلون الجنة ، ويكون في أعناقهم سمات ويسمون عتقاء الله عَزَّ وَجَلَّ ، والحديث يطول وهو صحيح ، وإنما اختصرت منه قدر الحاجة على المعنى .

وحكم الصنف الأول ، والثاني ، والثالث ، أجمعين أن لا يجب لهم حرمة ، ولا يكون لهم عصمة ، ولا ينسبون إلى إيمان ولا إسلام ، بل هم أجمعون من زمرة الكافرين وجملة الهالكين ، فإن عثر عليهم في الدنيا قتلوا فيها بسيوف الموحدين ، وإن لم يعثر عليهم فهم صائرون إلى جهنم خالدون ﴿تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ النَّارُ وَهُمْ فِيهَا كَالِحُونَ﴾ (المؤمنون : 104) .

فصل

ولما كان اللفظ المنبيء عن التوحيد إذا انفرد عن العقد ، لم يقع به في حكم الشرع منفعة ، ولا لصاحبه بسببه نجاة ، إلا مدة حياته عن السيف أن يراق دمه ، واليدان تسلط على ماله إذا لم يعلم خفي حاله ، حسن فيه أن يشبه بقشر الجوز الأعلى ، فهو لا يحتمل ولا يرفع في البيوت ، ولا يحضر في المجالس ، أي مجالس الطعام ، ولا تشتهيه النفوس ، إلا ما دام منطوياً على مطعمه ، صوناً على لبه ، فإذا أزيل عنه بكسر أو علم منه أنه منطوٍ على فراغ ، أو سوس ، أو طعمه فاسد ، لم يصلح لشيء ، ولم يبق فيه غرض لأحد ، وهذا لا

خفاء في صحته ، والغرض بالتمثيل تقريب ما غمض إلى نفس الطالب ، وتسهيل ما اعتاص على المتعلم والسامع فهمه ، وليس من شرط المثال أن يطابق الممثل به من كل وجه ، فكان يكون هو ، ولكن من شرطه أن يكون مطابقاً للواحد المراد منه .

فصل

فإن قلت : فما الذي صدّ هؤلاء الأصناف الثلاثة من أهل النطق عن النظر ، والبحث ، حتى تعلموا ، أو عن الاعتقاد حتى تخلصوا من عذاب الله ، وهم في الظاهر قادرون على ذلك ، وما المانع الخفي الذي منعهم وأبعدهم عنه ، وهم يعلمون أن ما عليهم كبير مؤونة ، ولا عظيم نفقة ؟

فاعلم أن هذا السؤال يفتح باباً عظيماً ، ويهز قاعدة كبيرة ، يخاف من التوغل فيها أن يخرج من المقصد ، ولكن لابد إذا وقع في الأسماع ، ووعته قلوب الطالبين ، واشتاقت إلى سماع الجواب عنه ، أن نورد في ذلك قدر ما يقع به الكفاية ، وتقنع به النفوس بحول الله وقوته ، نعم ما سبق في العلم القديم لا تجري بخلافه المقادير ، فهم من ذلك بإرادة الله عَزَّ وَجَلَّ ، جاء اختصاص قلوبهم بالأخلاق الكلابية ، والشيم الذئابية ، والطباع السبعية ، وغلبتها عليهم والملائكة لا تدخل بيتاً فيه كلب ، كذلك قال عليه السلام ، والقلوب بيوت تولى الله بناءها بيده ، وأعدها لأن تكون خزائن علمه ، ومشارق مكنوناته ، ومهبط ملائكته ، ومغاشي أنواره ، ومهاب نفحاته ، ومجال مكاشفاته ، ومجاري رحمته ، وهيأها لتحصيل المعرفة به ، فمتى كان فيها شيء من تلك الأخلاق المذمومة لم يدخلها الملائكة ، ولم ينزل عليها شيء من الخير من قبله ، إذ هي الوسائط بين الله تعالى وبين خلقه ، وهم الوفود منه بالخيرات والموصلون إليه وعنه ، بالباقيات الصالحات ، ولولا تلك الأخلاق المذمومة ، التي حلت فيهم وهي التي ذم الكلب لأجلها لما احترمت الملائكة بإذن الله عن حلولها فيها ، وهي لا تخلو من خير تنزل به ، ويكون معها ، فحيثما حلت حل الخير في ذلك القلب بحلولها ، وإنما هي لها فحيثما وجدت قلباً خالياً ، ولو حيناً من الدهر وزمناً نزلت عليه ، ودخلته ، وثبتت ما عندها من الخير عنده ، فإن لم يظهر على الملائكة ما زعجها عنه من تلك الأخلاق المذمومة ، بواسطة الشياطين الذين هم في مقابلة الملائكة ، ثبتت عنده ، وسكنت فيه ، ولم تبرح عنه ، وعمرته بقدر سعة البيت وانشراحه من الخير ، فإن كان البيت كثير الاتساع أكثرت فيه من متاعها ، واستعانت بغيرها ، حتى يمتلىء البيت من متاعها وجهازها ، وهو الإيمان بالله والصلاح ، وضروب المعارف النافعة عند الله عَزَّ وَجَلَّ ، فإذا طرق ذلك البيت طارق شيطان ، ليسرق من ذلك الخير الذي هو متاع الملك ، ويثبت فيه خلقاً مذموماً لا يوجد إلا في الكلب ، وهو متاع الشيطان ، قاتله الله وطرده عن ذلك المحل ، فإن جاء للشيطان مدد من الهوى ، من قبل النفس ولم يجد الملك نصره ، وهو عزم اليقين من قبل الروح ، انهزم الملك وأخلى البيت ، ونهب المتاع ، وخرب البيت بعد عمارته ، وأظلم نوره ، وضاق بعد انشراحه ، وهكذا حال من آمن وكفر وأطاع وعصى ، وضل واهتدى .

فإن قلت : فميز لي أصناف هذه الأخلاق المذمومة ، التي صدت هؤلاء الأصناف المذكورين عن اعتقاد الإيمان ، ونفرت الملائكة عن النزول إلى قلوبهم ، بكشف معاني التوحيد ، ومنعهم من الحلول فيها ،

حتى لم ينالوا شيئاً من الخيرات الكائن معها .

فاعلم أن الأخلاق التي لا يجتمع معها الملائكة في قلب واحد كثيرة ، والتي في قلوب هؤلاء منها معظمها ، وهي الطمع ، في غير خطير ، والحرص على فانٍ حقير .

أما الصنف الأول : فإنهم رجعوا وخافوا أن تبدو لهم صحة ما يشغلهم عن لذاتهم وينغص عليهم ما رغبوا فيه من راحاتهم ، وتكدر لديهم منال شهواتهم ، فأبقوا أمرهم على ما هم عليه .

وأما الصنف الثاني والثالث : فصدهم أيضاً خوف وجزع ، وحرص على ما ألفوه من تبجيل أحدهم أن يزول ، ومؤانسة أشياعهم أن تتغير وتذهب ، ومواساة إيلافهم أن تنقطع ، واستثقالاً لما يشاهدونه من أهل الإيمان أن يلتزموه وفراراً من شرائطه ، وما يصحبه من الأعمال ، والوظائف ، إذ يتمثلوه ، والكلب ما ذم لصورته ، وإنما ذم بهذه الأخلاق التي هي الطمع في الخسائس ، والجزع من الصبر على ما يعده من الفضائل ، حتى احترمت الملائكة أن تدخل بيتاً فيه كلب .

فإن قلت : فكيف آمن من كفر ، وأطاع من عصى ، واهتدى من ضل ، إذا كانت الشياطين لا تفارق قلب الكافر والعاصي والضال ، بما تثبتون من الأخلاق المذمومة التي هي كلاب نابحة ، وذئاب عادية ، وسباع ضارية ، وأصناف الخير إنما ترد من الله عَزَّ وَجَلَّ بواسطة الملائكة ، وهي لا تدخل موضعاً يحل فيه شيء مما ذكرنا ، وإذا لم تدخل لم يصل إلى الخير الذي يكون معها ولم تصل إليه فعلى هذا يجب أن يبقى كل كافر على حاله ، ومن لم يخلق مؤمناً معصوماً فلا سبيل له إلى الإيمان على هذا المفهوم .

فاعلم أن هذا يستدعي أصنافاً من علم القلوب ، ولا سبيل إلى ذلك في مثل هذا المقام المعلوم ، والقول والمعنى في جواب ما سألت عنه ، أن للشيطان غفلات وللأخلاق المذمومة عدمات ، كما أن الملائكة لها عن القلوب غيبات ، ولتواتر الخير عليها فترات ، فإذا وجد الملك كما أعلمتك قلباً خالياً ، ولو زمناً ما فرّ ودخل فيه ، وأراه ما عنده من الخير ، فإن صادف منه قبولاً ، ولما عرض عليه من الخير تشوقاً ونزوعاً ، أورد عليه ما يملأ ويستغرق لبه ، وإن صادف منه صحواً ، وسمع منه بجنود الشياطين استغاثة وبالأخلاق الكلابية استعانة ، رحل عنه وتركه ، ولهذا قيل ما خلا لب عن لمة ملَك أو نزعة شيطان .

فإن قلت : فأي بيت فهم عن النبي ﷺ في الخطاب ؟ وأي كلب أذهل بيت القلب ، كلب الخلق أو بيت اللبن وكلب الحيوان ؟

فاعلم أن الحديث نخارج على سبب . ومعناه وجملته أن المقصود بالأخبار هو بيت اللبن ، وكلب الحيوان معلوم ، ولا يبتك في ذلك ، ولكن يستقرأ منه ما قلناه ويستنبط من مفهومه ما نبهناك عليه ، ويتخطى منه إلى ما أشرنا لك نحوه ، ولا نكر في ذلك ، إذا دل عليه العلم ، وجملة الاستنباط ، ولم تمجه القلوب المستضاءة ولم تصادم به شيئاً من أركان الشريعة ، فلا تكن جاحداً ولا تجزع من تشنيع جاهل ، ولا من نفور مقلد ، فكثيراً ما ورد شرع مقرون بسبب فرأى أهل الاعتبار وجه تعديه عن سببه إلى ما في معناه ، ومشابه له من الجهة التي تصلح أن يعديها إليه ، ولولا ذلك لما قال النبي ﷺ : «رُبَّ مُبْلِغٍ أَوْعَى مِنْ سَامِعٍ وحَامِلِ فِقْهٍ إلى مَنْ هُوَ أَفْقَهُ مِنْهُ» .

سؤال

فإن قلت : فقد قال النبي ﷺ : «لا تَدْخُلُ المَلائِكَةُ بَيْتاً فِيهِ صُورَةٌ» وعلم السبب الذي جاء هذا الحديث عليه وفيه ، فهل يعدي عن سببه ويترقى منه إلى مثل ما ترقى من الحديث الآخر ، فهذا كما قيل : الحديث شجون ، وأتبعنا هذا الباب ما يقرب منه ويبعد علينا التخلص عنه ، نعم . يترقى منه إلى قريب من ذلك وشبهه ، ويكون هذا الحديث منبهاً عليه ، وهو أن الصورة المنحوتة قد اتخذت آلهة ، وعبدت من دون الله عَزَّ وَجَلَّ . وقد نبه الله عَزَّ وَجَلَّ قلوب المؤمنين على عيب فعل من رضي بذلك ، ونقص إدراك من دان به حين قال مخبراً عن إبراهيم عليه السلام حيث قال : ﴿أَتَعْبُدُونَ ما تَنْحِتُونَ * واللهُ خَلَقَكُمْ وما تَعْمَلُونَ﴾ (الصافات : 95 ، 96) فكان امتناع الملائكة من دخول بيت فيه صورة لأجل أن فيه ما عبد من دون الله سبحانه أو ما حكي به ما هو على مثاله ، ويترقى من ذلك المعنى إلى أن القلب الذي هو بيت بناه الله ليكون مهبطاً للملائكة ، ومحلاً للذكر ، ومعرفة عبادته وحده دون غيره ، فإذا حل فيه معبود غير الله سبحانه وهو الهوى لم تقربه الملائكة أيضاً .

فإن قيل : فظاهر الحديث يقتضي منافرة الملائكة لكل صورة عموماً ، وما ذكرته تعليلاً ينبغي أن لا يقتضي إلا منافرة ما عبد ، أو ما نحت على مثاله .

قلنا : تشابهت الصور المنحوتة كلها في المعنى الذي قصد بها التصوير لأجلهن وهو مضارعة ذي الأرواح ، وما نحت للعبادة إنما قصد به تشبيه ذي روح ، فلما كان هذا المعنى الجامع لها وجب تحريم كل صورة منافرة للملائكة .

فإن قيل : فما وجه الترخيص فيما رقم في ثوب ، فذلك لأنها ليست مقصودة في نفسها وإنما المقصود الثوب الذي رقمت به .

فإن قيل : فما بال الثياب رخص في محاكاتها بالتصوير ، وذات أنواط في العرب مشهورة معلومة .

فاعلم أن ذات أنواط إنما كانت شجرة في أيام العرب الجاهلية تعلق عليها يوماً في السنة فاخر ثيابها ، وحلي نسائها ، لأجل اجتماعها عندها وراحتها في ذلك اليوم ، ولم يكونوا يقصدونها بالعبادة لما كانت بغير صفة التماثيل المنحوته والأصنام ، ولو كان ذلك ما سأل أصحاب رسول الله ﷺ أن يجعل لهم ذات أنواط ، حتى أنكر النبي ﷺ ذلك عليهم ، ولو عبدت فقد عبد كثير من خلق الله تعالى ، كالملائكة والشمس والقمر وبعض النجوم والمسيح عليه السلام وعلي رضي الله عنه ؛ ولم يعبدوا ما نحت على شكل النبات ، فلم تعبد من هذه إلا ذات روح ، فما أبعد عن دركها من حرمه الله تعالى إياها ، فله الحمد وهو أهله .

بيان أصناف أهل الاعتقاد المجرد

وأما أهل الاعتقاد المجرد عن تحصينه بالعلم ، وتوثيقه بالأدلة ، وشده بالبراهين فقد انقسموا في الوجود إلى ثلاثة أصناف .

أحدهم : صنف اعتقدوا مضمون ما أقروا به ، وحشوا به قلوبهم من غير تردد ولا تكذيب ، أسروه في أنفسهم ولكنهم غير عارفين بالاستدلال على ما اعتقدوا ، وذلك لفرط بعدهم وغلظ طبائعهم ، واعتياص

طرق ذلك عليهم ، ويقع عليهم اسم الموحدين وتحققنا وجود أمثالهم كثيراً على عهد سيد المرسلين ﷺ ، والسلف الصالحين رضي الله عنهم ، ثم لم يبلغنا أنه اعترض أحد إسلامهم ، ولا أوجب عليهم الخروج منه ، والمعروف عنه ، ولا كلفوا مع قصور فهمهم وبعدهم عن فهم ذلك بعلم الدلالة ، وقراءة البراهين وترتيب الحجاج ، بل تركوا على ما هم عليه ، وهؤلاء عندي معذورون في بعدهم ، ومقبولون بما توافوا عليه من إقرارهم وعقدهم ، والله سبحانه قد عذرهم مع غيرهم بقوله سبحانه وتعالى : ﴿لا يُكَلِّفُ اللهُ نَفْساً إلا وُسْعَهَا﴾ (البقرة : 286) ولا يخرجون عن مقتضى هذه الآيات بحال ، وسنبدي لك طريقاً من الاعتبار تعرف به صحة إسلامهم ، وسلامة توحيدهم ، إن شاء الله عَزَّ وَجَلَّ .

والصنف الثاني : اعتقدوا الحق مع ما ظهر منهم من النطق ، واعتقدت مع ذلك أنواعاً من المخاييل ، قام في مخيلتها أنها أدلة ، وطأتها براهين وليست كذلك ، وقد وقع في هذا كثير ممن يشار إليه ، فضلاً عن من دونهم ، فإن وقع إلى هذا الصنف من يزعزع عليهم تلك المخاييل بالقدح ، ويبطلها عليهم بالمعارضة أو الاعتراض لم يلتفتوا إليه ، ولا أصغوا لما يأتي به ، ويترفعوا إلى أن يجاوبوه لما يحملهم عليه من سوء الفهم ، أو رداءة الاعتقاد ، وعندهم أن جميع تلك المخاييل في باب الاستدلال أرسخ من شوامخ الجبال ، فمنهم من يعتقد دليله مذهب شيخه الرفيع القدر ، المطلع على العلوم ، ومنهم من يكون دليله خبراً له ، ومنهم من يكون دليله بعض محتملات آية أو حديث صحيح ، ولعمري إنهم ينبغي إذا صادفوا السُّنة باعتقادهم ، ولم يقعوا في شيء من الضلال ، أن يتركوا على ما هم عليه ، ولا يحركوا بأمر آخر ، بل يصدقوا بذلك ويسلم لهم ، لئلا يكون إذا تتبع الحال معهم ربما لقنوا شبهة ، أو ترسخ في نفوسهم بدعة يعسر إنحلالها ، أو يقع في تكفير مسلم وتضليله ، بل هناك أسباب كثيرة واعلم أن اعتقاد الخلائق وعلمها من أغذية النفوس ، فمن رغب في تكملتها لم يقنع بدونها ، وإذا حصل له ذلك قوي به ، ومن قنع بأيسرها ولم تطمح همته إلى ما هو أعلى من ذلك ضعف ، ولكنه يعيش عيش الطفيف ، وإنما يهلك من لا بلغة له ولا يجدها ، أو يجدها ولكنها تكون مشابهة ممن جاء بمضرة بدعة ، وسموم كفر ، فلا تذهل عما يشار لك إليه ، وإنما المرغوب تنبيهك والله المستعان ، وقلما بين الصنف الثاني والأول من التفاوت من حيث إن أولئك مقلدون فيما يعتقدونه دليلاً ، غير أنهم أوثق رباطاً من الأولين ، لأن أولئك إن وقع إليهم من شككهم ربما شكوا ، وانحل رباط عقدهم ، وهؤلاء في الأغلب لا سبيل إلى انحلال عقودهم ، إذ لا يرون أنفسهم انهم مقلدون ، وإنما يظنون أنهم مستدلون عارفون ، فلهذا كانوا أحسن حالاً . والصنف الثالث : أقروا واعتقدوا كما فعل الذين من قبلهم ، وقدموا النظر أيضاً ، ولكنهم لعدم سلوكهم سبيله مع القدرة عليه ، ومعهم من الذكاء والفطنة والتيقظ ، ما لو نظروا لعلموا ، ولو استدلوا لتحققوا ، ولو طلبوا لأدركوا سبيل المعارف ووصلوا ، ولكنهم آثروا الراحة ، ومالوا إلى الدعة ، واستبعدوا طريق العلم ، واستثقلوا الأعمال الموصلة إليه وقنعوا بالقعود في حضيض الجهل ، فهؤلاء فيهم أشكال عند كثير من الناس في البديهة ، ويتردد حالهم في النظر ، وهل يسمون عصاة أو غير ذلك ، يحتاج إلى تمهيد آخر ليس هذا مقامه ، والالتفات إلى هذا الصنف أوجب خلاف المتكلمين في العوام على الإطلاق ، من غير تفريق بين بليد ومتيقظ وفطن ، فمنهم من لم ير أنهم

مؤمنون ، ولكن لم يحفظ عنهم أنهم أطلقوا اسم الكفر عليهم .

ولعلك تقول : إن مذهبهم المشهور ، أن المحل لا يخلوا عن الصفات إلا إلى ضدها ، فمن لم يحكم له بالإيمان ، حكم عليه بالكفر ، كما أن من لم يحكم له بالحركة ، حكم عليه بالسكون ، وكذلك الحياة والموت والعلم والجهل وسائر ما له من الصفات .

قلنا : فلئن صح ذلك في الصفات التي هي أعراض ، فقد لا يصح في الأوصاف التي هي أحكام الإيمان ، والكفر والهداية والضلالة والبدعة والسنة ربما كانت ليست من قبيل الأعراض ، وإنما ذكرت لك هذا في معرض الشك ، في شعوب ما نورد على ذلك ، ومنهم من أوجب لهم الإيمان ، ولكن أوجب لهم المعرفة وقدرها لهم ، وعجزهم عن العبادة ، ووجوب العبادة في الشرع جار على هذا النحو ، وهؤلاء لم يخالفوا المذكورين قبلهم ، لأن أولئك سلبوا الإيمان عمن لم يصدر اعتقاده عن دليل ، وهؤلاء أوجبوا الإيمان لمن أضافوا إليه المعرفة المشروطة في صحة الإيمان وإنما فروا عن الشناعة الظاهرة ، فشذوا عن الجمهور بهذا الاحتمال ، وزادوا على أنفسهم أنهم ألموا بقول من جعل المعارف كلها ضرورية ، ولم يشعروا بذلك حين قالوا عجزت العامة عن سرد الدليل ، وتعظم العبارة عنه ، وأنه لا تجب عليهم لأنهم إذا نبهوا وعرض عليهم ما قرب من الألفاظ ، واعتادوا من المخاطبات دلائل الحدوث ، ووجوه الافتقار إلى المحدث بعد ، لاعتقدوا وعددوا من هذه المعارف كثيراً ، ووجدوا أنفسهم عارفين بذلك .

واعلم أن من يقول إن المعارف كلها ضرورية ، هكذا يقول : إنما افتقر الناس إلى النسبية ، ولم يتمرنوا على العبارة على مواضع العلوم ، وإلا فهم إذا نبهوا عليها وتلطف بهم في تفهيمها بالزوال إلى ما ألفوه من العبارات ، وجدوا أنفسهم غير منكرة لما نبهوا عليه ، وسارعوا إلى الفيئة ، ومثال هذا كمن نسي شيئاً كان معه أو إنساناً نصحه أو رآه فنسيه ، وغفل عنه لأجل غيبته ثم رآه بعد ذلك فذكر ، فإنه يقال بدا لأنه كان عارفاً بما غاب عنه ، لكنه ناس له أو غافل عنه ، ولولا عرفناه به ما وجد عدم الإنكار وسرعة الألفة عنه . وطائفة من المتكلمين أيضاً أوجب لهم الإيمان مع عدم المعرفة المشروطة عند أولئك ، وأي الآراء أحق بالحق وأولى بالصواب ، ليس من غرضنا في هذا الموضع وإنما غرضنا تبعيد ما أشاعه في الإحياء أهل الغلول والإغلال ، فلا يفتح مثل هذا الباب وقد أبدينا من وجه ذلك في مراقي الزلف ، ما يغني فيها بإذن الله عَزَّ وَجَلَّ .

فصل في بيان أصناف أهل الاعتقاد

تفصيل آخر من جهة أخرى ، هو من تتمة ما جرى ، فلتعلم أن ما منهم صنف إلا وله على التقريب ثلاثة أحوال ، لا يستبد أحدهم من أحدها بحكم الاعتقاد الضروري فأصفى الحالات لهم أن يعتقد أحدهم جميع أركان الإيمان على ما يكمل عليه في الغالب ، لكنه على طريق التفاوت كما سبق .

الحالة الثانية : أن لا يعتقدوا إلا بعض الأركان مما فيه خلاف ، إذا نفر ولم ننصف إليه في اعتقاده سواء هل يكون مؤمناً أو مسلماً أن يعتقد وجود الواحد فقط ، أو يعتقد أنه موجود حي لا غير ؟ وأمثال هذه التقديرات ، ويخلوا عن اعتقاد باقي الصفات ، خلوا كاملا لا يخطر بباله ، ولا يعتقد فيها حقاً ولا باطلاً ولا صواباً ولا خطأ ، ولكن التقدير الذي يعتقده من الأركان الثلاثة موافق للحق غير منسوب لغيره .

الحالة الثالثة : أن يعتقد الوجود كما قلنا ، والوحدانية والحياة ، ويكون فيما يعتقد في باقي الصفات ، على ما لا يوافق الحق ما هو عليه مما هو بدعة وضلالة وليس بكفر صريح ، فالذي يدل عليه العلم ، ويستنبط من ظواهر الشرع ، أن أرباب الحالة الأولى والله أعلم على سبيل نجاة ، ومسلك خلاص ، ووصف إيمان ، أو إسلام وسواء في ذلك الصنف الأول والثاني من أهل الاعتقاد ، ويبقى الصنف الثالث على محتملات النظر كما نبهناك عليه .

وأما أهل الحالة الثانية : وهي الاقتصار على الوجود المفرد ، أو الوجود ووصف آخر معه ، مع الخلو عن اعتقاد سائر الصفات التي للكمال والجلال وأركانهما ، فالمتقدمون من السلف لم تشتهر عنهم في صورة المسألة ما يخرج صاحب هذا العقد عن حكم الإيمان والإسلام ، والمتأخرون مختلفون ، فكثير خاف أن يخرج من اعتقد وجود الله عَزَّ وَجَلَّ ، وأظهر الإقرار بنبيه ﷺ من الإسلام ولا يبعد أن يكون كثير ممن أسلم من الأجلاف والرعيان ، وضعفاء النساء والأتباع على هذا بلا مزيد عليه ، لو سئلوا واستكشفوا عن الله عَزَّ وَجَلَّ ، هل له إرادة أو بقاء أو كلام أو ما شاكل ذلك ، وهل له صفة معنوية ليست هي هو ، ولا هي غيره ، ربما وجدوا يجهلون هذا ولا يعقلون وجه ما يخاطبون به ، وكيف يخرج من اعتقد وجود الله ووحدانيته مع الإقرار بالنبوة ، من حكم الإسلام والنبي ﷺ قد رفع القتال والقتل ؟ وأوجب حكم الإيمان أو الإسلام ، لمن قال : لا إله إلا الله واعتقد عليها ، وهذه الكلمات لا تقتضي أكثر من الوجود مع الوحدة في الظاهر ، وعلى البديهة من غير نظر ، ثم سمعنا عمن قالها في الإسلام أنه لم يعلم بعدها إلا فرائض الوضوء والصلات وهيآت الأعمال البدنية ، والكف عن أذى المسلم ، ولم يبلغنا أنهم درسوا علم الصفات وأحوالها ، ولا هَل الله تعالى عالم بعلم ، أو عالم بنفسه ، وهو باق ببقاء ، أو باق بنفسه ، وأشباه هذه المعارف ، ولا يدفع ظهور هذا إلا معاند ، أو جاهل سيرة السلف وما جرى بينهم ، ويدل على قوة هذا الجانب في الشرع ، أن من استكشف منه على هذه الحالة وتحققت منه ، وأبى أن يذعن لتعلم ما زاد على ما عنده ، لم يفت أحد بقتله ولا استرقاقه ، والحكم عليه بالخلود في النار عسر جداً ، أو خطر عظيم ، مع ثبوت الشرع بأن من قال لا إله إلا الله ، دخل الجنة ولعلك تقول : قد قال في مواطن أخرى إلا بحقها ، ثم تقول اعتقاد باقي الصفات التي بها يكون اعتقاد جلال الله جل وعز وكماله من حقها ، نعم هي من حقها عند من بلغه أمرها ، وسمع بها أن يعتقدها ، وأما من خلا من اعتقادها ولم يقوَ له أن يلقاها ولم يسمع بها ففيه مرمى هذا النظر ، وعليه يقع مثل هذا الاحتفاظ ، وفي مثله يخاف أن يطلق عليه اسم الكفر ، هذا وأنت تسمع عن الله عَزَّ وَجَلَّ يقول في الآخرة أخرجوا من النار من كان في قلبه مثقال ذرة من إيمان ، وذكر من المثقال إلى الذرة والخردلة من الإيمان ، إلى أن أخرج منها من لم يعمل حسنة قط ، فما يدريك أن يكونوا هؤلاء وأمثالهم المرادين ، لأن التقدير وقع في الإيمان لا في الأعمال .

فإن قلت : فإن الناس وأئمة العلماء من لم يوجب الإيمان لمن اعتقد جميع الأركان إذا لم يصحبها معرفة ، ولم يقصدها دليل فكيف بمن فاته اعتقاد بعضها أو كلها .

قلنا : قد رأينا وجه الاعتراض على هذا المذهب ، ونبهناك على بعد أهله عن وجه الحق فيه ، وأنهم

أرباب تعسف ، ولو استقصى مع كثير منهم القول في ذلك ، لبدا له أنه تسبب إلى ما يظهر له من تصوره عن معرفة ، شرطها في إيمان غيره ، ولآثر من حسه الركون إلى ما رأيناه أولى من رأيه وأحق بالصواب ، ولعدل عن مذهبه ثم بعد ذلك تراهم حين أخبروا عن سلب الإيمان عنهم ، لم يقوا اسم الكفر عليهم ، ثم يعرضوا على الاستتابة إن كانت من مذهبه ، ثم يحكم فيه بالقتل والاسترقاق ، فإذا تأملت هذا لم يخف عليك عيب ما قالوه ، ونقص ما مالوا إليه ، فلنرجع إلى ما نحن عليه ولنستعن بالله عَزَّ وَجَلَّ .

أما أرباب الحالة الثالثة : وهي اعتقاد البدعة في الصفات أو بعضها ، فإن حكمنا بصحة إيمان أهل الحالة المذكورة قبل هذا ، وإسلامهم ، حققنا أمر هؤلاء فيما اعتقدوه إذ لم يقعوا فيه بوجه قصد يقطعهم عن إيصال العذر ، لأن هؤلاء قد حصل لهم في العقد ما هو شرط الخلاص والنجاة من الهلاك الدائم ، وأصيبوا فيما وراء ذلك ، فإن أمكن ردهم في الدنيا ، وزجرهم عنه ، إن أظهروا المنع عن الإقلاع ؛ والرجوع بالعقوبة المؤلمة ، دون قتل كان ذلك ، وإن فاتوا في الموت لم نقصرهم في اعتقادنا عن أرباب الحالة الثانية المذكورة قبلهم ، والله أعلم بالناجي والهالك من خلقه ، والمطيع والعاصي من عباده هكذا يجب أن يكون مذهب من نظر في خلق الله تعالى بعين الرأفة والرحمة ، ولم يدخل بين الله عَزَّ وَجَلَّ وبين عباده ، فيما غاب عنه علمه وعدم فيه سبيل اليقين ، وفهم معنى قوله عَزَّ وَجَلَّ : ﴿وَلَا تَقْفُ ما لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ والبَصَرَ والفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولاً﴾ (الإسراء : 36) .

فإن قلت : وأين أنت من تكفير كثير من الناس لجميع أهل البدعة عامة وخاصة ، وقول النبي ﷺ : «إِنَّهُمْ مَجُوسُ هَذِهِ الأُمَّةِ» وقوله ﷺ : «سَتَفْتَرِقُ أُمَّتِي عَلَى ثَلاثٍ وسَبْعِينَ فِرْقَةً كُلُّهَا فِي النَّارِ إلا واحِدَةً» وقال عن قوم يخرجون على حين فرقة من الناس : «يَقُولونَ بِقَولِ خَيْرِ البَرِيَّةِ يَمْرُقُونَ مِنَ الدِّين كَمَا يَمْرُقُ السَّهْمُ مِنَ الرَّمِيةِ» والأحاديث الواردة فيمن اعتقد شيئاً من أهواء البدع كثيرة غير هذه ، مما توجب في الظاهر تكفيرهم بالإطلاق .

فاعلم أنه وإن كان كفرهم كثير من العلماء ، فقد أبقى عليهم دينهم ، وتردد فيهم كثير أو أكثر منهم ، وكل فريق منهم في مقابلة من خالفه ، فليقع التحاكم عند العالم الأكبر المؤيد بالعصمة ، سيد إمام المتقين ﷺ ، فهو عليه الصلاة والسلام حين قال مجوس هذه الأمة أضافهم إلى الأمة ، وما حكم بأن لم يقل مجوس على الإطلاق ، وحين أخبر عن الفرق أنهم في النار ، فما أخبر أحدهم أنهم خالدون فيها ، وحين قال يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية ، فقد قال متصلاً بهذا القول ، وتتمارى في الفرق ، وما موضع هذا التماري من المثل الذي ضربه فيهم رسول الله ﷺ ، فما أراك تلاحظ جهة وتترك أخرى ، وتذكر شيئاً وتذهل عن غيره ، وعليك بالعدل تكن من أهله ، واستعمل التفطن تشاهد العجائب المعجبة ، وتفهم قوله تعالى : ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وسَطاً لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ ويَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيداً﴾ (البقرة : 143) .

فصل

ولما كان الاعتقاد المجرد عن العلم بصحته ضعيفاً ، وتفرده عن المعرفة قريباً ممن رآه ألقى عليه شبه

القشر الثاني من الجوز ، لأن ذلك القشر يؤكل مع ما هو عليه صوناً ، وإذا انفرد أمكن أن يكون طعاماً للمحتاج وبلاغاً للجائع ، وبالجملة فهو لمن لا شيء معه خير من فقده ، وكذلك اعتقاد التوحيد ، وإن كان مجرداً عن سبيل المعرفة وغير منوط بشيء من الأدلة ضعيفاً فهو في الدنيا والآخرة وعند لقاء الله عَزَّ وَجَلَّ خير من التعطيل والكفر ومتى ركب أحدهم هذا ، فقد وقع في أعظم الحرج والمنكر .

بيان أرباب المرتبة الثالثة وهو توحيد المقربين

والكلام في هذا النوع من التوحيد له ثلاثة حدود :

أحدها : أن يتكلم في الأسباب التي توصل إليه ، والمسالك التي يعبر عليها نحوه ، والأحوال التي يتخذها بحصوله كما قدره العز بن العليمي ، واختار ذلك ورضاه وسماه الصراط المستقيم .

والحد الثاني : أن يكون الكلام في عين ذلك التوحيد ونفسه وحقيقته ، وكيف يتصور للسالك إليه والطالب له قبل وصوله إليه ، وانكشافه له بالمشاهدة .

والحد الثالث : في ثمرات ذلك التوحيد وما يلقى أهله به ، ويطلعون عليه بسببه ، ويكرمون به من أجله ، ويتحققون من فوائد المزيد من جهته .

أما الحد الأول : فالكلام عليه ، والبيان له ، والكشف لدقائقه ، وتذلُّلِه للصغير والكبير مأمور به ، مشدد في أمره ، متوعد بالنار على كتمه ، فيه بعث الأنبياء ، ومن أجله أرسل الرسل ، وببيانه للناس كافة نزلت من عند الله عَزَّ وَجَلَّ على أمناء وحيه الصحف والكتب ، وليقع التفقه في القلوب بتحقيقه وتصديقه ، أيدت الرسل بالمعجزات ، والأولياء والأنبياء بالكرامات ، لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل ، وعليه أخذ الله الميثاق على الذين أوتوا الكتاب ليبيننه للناس ولا يكتمونه ، وفيه أنزل الله : ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ ما أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ﴾ (المائدة : 67) وإياه عنى رسول الله ﷺ بقوله : «مَنْ سُئِلَ عَنْ عِلْمٍ فَكَتَمَهُ أُلْجِمَ يَوْمَ القِيامَةِ بِلِجَامٍ مِنْ نَارٍ» وجميع ذلك محصور في اثنين العلم بالعبرة ، والعمل بالسنة ، وهما مبنيان على آيتين الحرص الشديد ، والنية الخالصة ، والسر في تحصيلهما اثنان ، نظافة الباطن ، وسلامة الجوارح ، ويسمى جميع ذلك بعلم المعاملة .

وأما الحد الثاني : فالكلام فيه أكثر ما يكون على طريقة ضرب الأمثال ، تشبيهاً بالرمز تارة ، وبالتصريح أخرى ، ولكن على الجملة بما يناسب علوم الظواهر ، ولكن يشرف بذلك اللبيب الحاذق على بعض المراد ويفهم منه كثيراً من المقصود ، وينكشف له جل ما يشار إليه إذا كان سالماً من شرك التعصب ، بعيداً من هوة الهوى ، نظيفاً من دنس التقليد .

وأما الحد الثالث : فلا سبيل إلى ذكر شيء منه ، إلا مع أهله بعد علمهم به على سبيل التذكار ، لا على التعليم إنما كانت أحكام هذه الحدود الثلاثة على ما وصفناه ، لأن الحد الأول فيه محض النصح للخلق ، واستنقاذهم من غمرة الجهل ، والتنكيب بهم من مهاوي العطب ، وقودهم إلى معرفة هذا المقام ، وما وراءه مما هو أعلى منه مما لهم فيه الملك الأكبر ، وفوز الأبد ، وقد بين لهم غاية البيان وأقيم عليه واضح البرهان ، وهو يومئذ الطريق ، وأول سبيل السعادة ، فمن عجز عن ذلك كان عن غيره أعجز ، ومن سلكه

على استقامة فالغالب عليه الوصول ، إن الله لا يضيع أجر من أحسن عملا ، ومن وصل شاهد ، ومن شاهد علم ، وذلك غاية المطلوب ، ونهاية المرغوب والمحبوب ، ومن قعد حرم الوصول وما بعده ، ﴿وَفَضَّلَ اللهُ المُجَاهِدِينَ عَلَى القَاعِدِينَ أَجْراً عَظِيماً﴾ (النساء : 95) ومن غاب لم تنفعه الأخبار ، ولم يفده كثير من الأحاديث ، وأيضاً فإن الأخبار بما وراء الحد الأول والثاني على وجهه لو كشف للخلق كافة ، وأمكن بما أعد من الكلام وجرى بين الناس من عرف التخاطب ، كان فيه زيادة محنة ، وسبب في إهلاك أكثرهم ممن ليس من أهل ذلك المقام ، وذلك لغرابة العلم ، وكثرة غموضه ودقة معناه ، وعلوه في منازل الرقعة وبعده بالجملة والتفصيل ، من جميع ما عهد في عالم الملك والشهادة ، وخروجه عن تلك الحدود المألوفة ومباينته لكل ما نشأوا عليه ، ولم يشاهدوا غيره من محسوسات ومعقولات وضروريات ونظريات ، فلما كان لا يدرك شيء من ذلك بقياس ، ولا يتصور بواسطة لفظ ولا يحمل عليه ، مثل ، كما قال عَزَّ وَجَلَّ : ﴿فَلا تَعْلَمُ نَفْسٌ ما أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾ (السجدة : 17) وحكي عن ابن عباس رحمه الله أنه قال : ليس عند الناس من علم الآخرة إلا الأسماء ، وأراد من لم ينكشف له شيء من علمها وحقائقها في الدنيا ، وأيضاً ولو جاز الإخبار بها لغير أهلها لم يكن لهم سبيل إلى تصورها إلا على خلاف ما هي عليه بمجرد تقليد ، ويتطرق إليه من أهل الغفلة وذوي القصور جحود وتبعيد ، فلهذا أمروا بالتكتم إشفاقاً على من حجب من العلم ولهذا قال سيد البشر ﷺ : «لا تُحَدِّثُوا النَّاسَ بِمَا لَمْ تَصِلْهُ عُقُولُهُمْ أَتُرِيدُونَ أَنْ يُكَذَّبَ اللهُ ورَسُولُهُ» وقال ﷺ : «مَا حَدَّثَ أَحَدُكُمْ قَوماً بحديث لَمْ تَصِلْهُ عُقُولُهُمْ إلا كَانَ عَلَيْهِمْ فِتْنَةً» وعلى هذا يخرَّج قول المشايخ : إفشاء سر الربوبية كفر ، رزقنا الله وإياكم قلوباً واعية الخير ، إنه ولي كل صالح ، وإذا علمت أن الحد الأول قد تقرر علمه في كتب الرواية والدراية ؛ وملئت منه الطروس ، وكثرت به في المحافل الدروس ، وهو غير محجوب عن طالب ، ولا ممنوع عن راغب ، قد أمر الجهال به أن يتعلموه ، والعلماء أن يبذلوه ويعلموه ، فلا نعيد فيه هاهنا قولاً ، ولما كان حكم الحد الثالث الكتم تارة ، وتسكيت الكلام عنه مع غير أهله على كل حال ، لم يكن لنا سبيل إلى تعد إلى محدودات الشرع ، فلنثن العنان إلى الكلام بالذي يليق بهذا الحال والمقام ، فنقول :

أرباب المقام الثالث في التوحيد ، وهم المقربون ، على ثلاثة أقسام ، وعلى الجملة ، فكلهم نظروا إلى المخلوقات فرأوا علامات الحدوث فيها لائحة ، وعاينوا حالات الافتقار إلى الله تعالى عليهم واضحة ، وسمعوا جميعها تدل على توحيده وتفريده راشدة ناصحة ، ثم رأوا الله تعالى بإيمان قلوبهم ، وشاهدوه بغيب أرواحهم ، ولاحظوا جلاله وجماله بخفي أسرارهم ، وهم مع ذلك في درجات القرب على قدر كل واحد منهم في اليقين وصفاء القلب ، وهؤلاء الأصناف الثلاثة إنما عرفوا الله سبحانه بمخلوقاته ، وانقسامهم في تلك المعرفة كانقسام حفاظ تلاوة القرآن مثلاً ، فمن حافظ لبعضه ويكون ذلك البعض أكثر ، أو كثير منه دون كماله ، ومن حافظ لجميعه لكنه متلعثم فيه ، متوقف على الانهمار في قراءته ، ومن حافظ في تلاوته غير متوقف في شيء منه ، وكلهم ينسب إليه ويعد في المشهد والمغيب من أهله ، وكذلك أهل هذه المرتبة أيضاً منهم متوصل إلى المعرفة من قراءة صفحات أكثر المخلوقات ، أو كثير منها ، وربما كان فيما يقرأ

من الصفحات ما يغم عليه ، ومن قارىء لجميعها متفهم لها ، لكن بنوع تعب ، ولزوم فكرة ، ومداومة عبرة ، ومن ماهر في قراءتها مستخرج لرموزها ، نافد البصيرة في رؤية حقيقتها ، مفتوح السمع ، تناطقه الأشياء في فراغه وشغله ، وبحسب ذلك اختلفت أحوالهم ، في الخوف والرجاء والقبض والبسط والفناء والبقاء ولا مزيد على هذا المثال ، فهو أصلح لذوي الأفهام من شمس النهار وقت الزوال ، وعلمت لم سمي أهل هذه المرتبة مقربين ، فذلك لبعدهم عن ظلمات الجهل وقربهم من أنوار المعرفة والعلم ، ولا أبعد من الجاهل ، ولا أقرب من العارف العالم ، والقرب والبعد هاهنا عبارتان عن حالتين على سبيل التجوز في لسان الجمهور ، وعلى الحقيقة عند المستعملين لهما في هذا الفن أحد الحالتين ، عماء البصيرة ، وانطماس القلب ، والخلو عن معرفة الرب سبحانه وتعالى ، ويسمى هذا بعد مأخوذ من البعد عن محل الراحة والمنزل الواجب ، وموضع العمارة والأنس ، والانقطاع في مهامه القفر وأمكنه الخوف ، ومظان الانفراد والوحشة .

والحالة الثانية : عبارة عن اتقاد الباطن ، واشتغال القلب ، وانفساح الصدر ، بنور اليقين والمعرفة والعقل ، وعمارة البيت بمشاهدة ما غاب عنه أهل الغفلة واللهو ، ولكنه يدل على أنه لم يصل .

لعلك تقول أرى بعض أئمة الكلام عن لحوق هذا المقام كأن لم يضربوا فيه بسهم ، ولم يفز قدحهم منه بحظ ولا بسهم ، وأراهم عند الجمهور في الظاهر . وعند أنفسهم أنهم أهل الدلالة على الله تعالى ، وقادة الخلق إلى مرشدهم ، ومجاهدون أرباب النحل المردية . والملل الضالة المهلكة ، وقد سبق في الإحياء أنهم مع العوام في الاعتقاد سواء ، وإنما فارقوهم بإحسانهم حراسة عقودهم .

فاعلم أن ما رأيت في الإحياء صحيح ، ولكن بقي في كشفه أمر لا يخفى على المستبصرين ولا يغيب عن الشاذين ، إذا كانوا منصفين وهو أن المتكلمين من حيث صناعة الكلام فقط ، ولم يفارقوا عقود العوام ، وإنما فارقوهم بالجدل عن الانخرام ، والجدل علم لفظي ، وأكثره احتيال وهمي ، وهو عمل النفس ، وتخليق الفهم ، وليس بثمرة المشاهدة والكشف ، ولأجل هذا كان فيه السمين والغث ، وشاع في حال النضال إيراد القطعي وما هو حكمه من غلبة الظن ، وإبداء الصحيح ، وإلزام مذهب الخصم ، والمقام المشار إليه بالذكر وشبهه ، إنما هو علم التوحيد ، وفهم الأحوال ومعرفته باليقين التام ، والعلم المضارع للضروري ، بأن لا إله إلا الله ، إذ لا فاعل غيره ، ولا حاكم في الدارين سواه ، ومشاهدة القلوب لما حجب من الغيوب ، ومن أين للنازل طي المنازل ، وما لعلم الكلام مثل هذا المقام بل هو من خدام الشرع ، وحراس متبعيه من أهل الاختلاس والقطع ، وله مقام على قدره ، ويقطع به ولكن ليس عن مطالع الأنوار ، ومدارك الاستبصار والمدار في أوقات الضرورات والاختيار ، وبين ما يراد لوقت حاجته إن دعت وخصام صاحب بدعة ومناضلة ذي ضلالة بما ينغص على ذوي اليقين العيش ، ويشغل الذهن ، ويكدر النفس ، وما أهله الذين حفظ عنهم ووقع علمه فيما مضى من الزمان إليهم ، لا نقول في أكثرهم إنهم لا يحسنون غيره ، ولا يختصون بالتوحيد بمقام سواه بما هو أعلى منه بل الظن بهم أنهم علماء مثل ما ذكرنا ، فهم نصراء لكنهم لم يبدو من العلم في الظاهر إلا ما كانت الحاجة إليه أمس ، والمصلحة به لتوجه الضرورة أعم وأوكد ، ولما كان نجم في وقتهم من البدع ، وظهر من الأهواء وشاع من تشتيت كلمة أهل الحق ، وتجرأ العوام مع كل

ناعق ، فرأوا الرد عليهم ، والمنازعة لهم ، والسعي في اجتماع الكلمة على السنة بعد افتراقها وإهلاك ذوي الكيد في احتيالهم ، وإخماد نارهم الذين هم أهل الأهواء والفتن ، وأولى بهم من الكلام بعلوم الإشارات ، وكشف أحوال أرباب المقامات ، ووصف فقه الأرواح والنفوس ، وتفهم كل ناطق وجامد ، فإن هذه كلها وإن كانت أسنى وأعلى فإن ذلك من علم الخواص ، وهم مكفيون المؤونة ، والعامة أحق بالحفظ ، وعقائدهم أولى بالحراسة ، واستنقاذ من يخاف عليه الهلاك أولى من مؤانسة وحيد ، والتصدق على ذي بلغة من العيش ، فكيف إن كان عن غناء ؟ وأيضاً فإن علم الكلام إنما يراد كما قلنا للجدال ، وهو يقع من العلماء العارفين مع أهل الإلحاد والزيغ ، بقصورهم عن ملاحظة الحق موقع السيف للأنبياء والمرسلين عليهم السلام ، بعد التبليغ مع أهل العناد ، والتمادي على الغي وسبيل الفساد ، فكما لا يقال السيف أبلغ حجة النبي ﷺ ، كذلك لا يقال علم الكلام والجدال أبلغ مقام من ظهر منه من العلماء ، وكما لا يقال في الصدر الأول فقهاء الأمصار ، ومن قبلهم حين لم يحفظ عنهم في الغالب إلا علوم أخر ، كالفقه والحديث والتفسير ، لأن الخلق أحوج إلى علم ما حفظ عنهم ، وذلك لغلبة الجهل على أكثرهم ، فلولا أن حفظ الله تعالى تلك العلوم بمن ذكرنا لجهلت العبارات ، وانقطع علم الشرع ، ونحن مع هذه الحالة نعلم أنهم عارفون بالتوحيد على جهة اليقين ، بغير طريق علم الكلام والجدل ، يتحلون بالمقامات المذكورة ، وإن لم يشتهر عنهم ذلك اشتهار ما أخذه عنهم الخاص والعام ، ومثل ذلك حالة الصحابة رضي الله عنهم بعد النبي ﷺ ، لما خافوا دروس الإسلام ، وأن يضعف ويقل أهله ، ويرجع البلاد والعامة إلى الكفر كما كانوا أول مرة ، فقد مات صاحب المعجزة ﷺ ، والمبعوث لدعوة الحق عليه السلام ، رأوا أن الجهاد والرباط في ثغر العدو والغزو في سبيل الله ، وضرب وجوه الكفر بالسيف ، وإدخال الناس في دين الله ، أولى بهم من سائر الأعمال ، وأحق من تدريس العلوم كلها ، ظاهراً وباطناً ، وإنما كانت تؤخذ عنهم علوم الشرع على الأقل ، وهم في حال ذلك الشغل والنظر إلى حال العوام أوكد من النظر إلى الخصوص ، لأن الخصوص لهم بأنفسهم عناء ، ولهم بحالهم قيام ، والعموم إن لم يكن مشتغلاً بهم ، ذائداً لهم عن هلكاتهم وسائقاً بهم إلى مراشدهم وصلاحهم ، كان الهلاك إليهم أسرع ، ثم لا يكون من بعد ذلك أن فسد حال العموم للخصوص قدر ، ولا يظهر لهم نور ، ولا يقدرون على شيء كامل من البر ، فلا خاصة إلا بعامة ، ولقد كانت رعاية النبي ﷺ بحال الجماهير أكثر ، والخوف عليهم من الزيغ والضلال والهلاك أشد ، واللطف بهم في تخفيف الوظائف والأخذ بالرفق أبلغ ، وكان أهل القوة وذوي البصائر في الحقائق يأخذون أنفسهم بالمشقات ، وكان هو ﷺ يحب أن يعمل بالعمل من الطاعة فما يمنعه منه أو من المداومة عليه إلا خوف أن يفرض على أمته ، حين علم من أكثرهم الضعف ، ولم يكره لهم وفيه زيادة الأجر ، وكثرة الثواب والقرب من الله تعالى ، ولكن خاف عليهم أن يقعوا في تضييع الفرض ، فيكون عليهم كفل من الوزر ، ألا ترى كيف نهى الخلق عن قيام الليل كله ، وكان عثمان رضي الله عنه يقومه فلم ينهه ، ومنع السيف من كل من أراد أخذه بما شرط عليه فيه ، حتى جاء من علم منه القدرة على الوفاء بما شرط عليه فأعطاه إياه ، وقال لعائشة رضي الله عنها :

«لَوْلا حِدْثَانُ عَهْدِ قَوْمِكِ بِالكُفْرِ لَرَدَدْتُ البَيْتَ عَلَى قَوَاعِدِ إِبْرَاهِيمَ» وقال للأنصار : «أَمَا تَرَوْنَ أَنْ يَذْهَبَ النَّاسُ بِالشَّاءِ والبَعِيرِ وتَذْهَبُونَ بِرَسُولِ اللهِ ﷺ إلى رِحَالِكُمْ» ومع ذلك فالذي حفظ عنه النبي ﷺ ، وعن الصحابة من بعده ، وفقهاء الأمصار ، وأعيان المتكلمين من الإشارات لتلك العلوم المذكورة كثير لا يحصى ، وإنما القليل من حمله اليوم عنهم ، وتفقه مثلهم فاقصد تجد ، وتصد لاقتباس الحديث والتواريخ ومصنفات العلوم توقن ﴿وَمَنْ يُؤْتَ الحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْراً كَثِيراً وَمَا يَذَّكَّرُ إلا أُولُوا الأَلْبَابِ﴾ (البقرة : 269) .

بيان المرتبة الرابعة

وهو توحيد الصديقين ؛ وأما أهل المرتبة الرابعة . فهم قوم رأوا الله سبحانه وتعالى وحده ، ثم رأوا الأشياء بعد ذلك به فلم يروا في الدارين غيره ، ولا اطلعوا في الوجود على سواء ، فقد كان بيان إشارات الصحابة رضي الله عنهم أجمعين فيما خصوا من المعرفة في هجيراهم ، فكان هجير أبي بكر الصديق رضي الله عنه لا إله إلا الله ؛ وكان هجير عمر رضي الله عنه الله أكبر ، وكان هجير عثمان رضي الله عنه سبحان الله ، وكان هجير علي رضي الله عنه الحمد لله ، فاستقرى السابقون من ذلك أن أبا بكر لم يشهد في الدارين غير الله سبحانه وتعالى ، فلذا كان الصديق وسمي به كما علمت ، وكان يقول : لا إله إلا الله ، وكان عمر يرى ما دون الله صغيراً مع الله في جنب عظمته ، فيقول : الله أكبر ، وكان عثمان لا يرى التنزيه إلا لله تعالى ، إذ الكل قائم به غير معرى من النقصان والقائم بغيره معلول ، فكان يقول : سبحان الله ، وعليّ لا يرى نعمة في الدفع والرفع والعطاء والمنع ، في المكروه والمحبوب ، إلا من الله سبحانه ، فكان يقول : الحمد لله ، وأهل هذه الرتبة على الجملة في حال خصوصهم فيها صنفان ، مريدون ومرادون ، فالمريدون في الغالب لا بد لهم من أن يحلو في المرتبة الثالثة ، وهي توحيد المقربين ، ومنها ينتقلون وعليها يعبرون إلى المرتبة الرابعة ، ويتمكنون فيها ، ومن أهل هذا المقام يكون القطب والأوتاد والبدلاء ، ومن أهل المرتبة الثالثة ، يكون النقباء والشهداء والنجباء والصالحون والله أعلم .

فإن قلت : أليس الوجود مشتركاً بين الحادث والقديم ، والمألوه والإله ، ثم معلوم أن الإله واحد ، والحوادث كثيرة فكيف يرى صاحب هذه المرتبة الأشياء شيئاً واحداً ؟ أذلك على طريق قلب الأعيان ؟ فتعود الحوادث قديمة ، ثم تتحد بالواحد فترجع هي هو ، وفي هذا من الاستحالة والمروق عن مصدر العقل ما يغني عن إطالة القول فيه ، وإن كان على طريق التخييل للولي لما لا حقيقة له فكيف يحتج به ؟ أو كيف يعدّ حالاً لولي أو فضيلة لبشر ؟ .

الجواب عن ذلك : أن الحوادث لم تنقلب إلى القدم ، ولم تتحد بالفاعل ، ولا اعترى الولي تخييل ما لا حقيقة له ، وإنما هو ولي مجتبى ، وصديق مرتضى ، خصه الله تعالى بمعرفته على سبيل اليقين ، والكشف التام ، وكشف لقلبه ما لو رآه ببصره عياناً ما ازداد إلا يقيناً ، وإن أنكرت أن يكون وهب الله المعرفة به على هذا السبيل أحدا من خلقه ، فما أطمّ مصيبتك وما أعظم العزاء فيك ، حين فتشت الخلق بمعيارك ، وكلتهم بمكيالك ، وفضلت نفسك على الجميع ، إذ لا سبب لإنكارك إن صح ، إلا أنك تخيلت أنه لم

يرزق أحداً ما لم ترزق ، أو يخص من المعرفة ما لم تخص فإذا تقررت هذه القاعدة فصار ما كشف لقلبه لا يخرج منه ، وما اطلع عليه لا يغيب عنه ، وما ذكره من ذلك لا ينساه ولا في حال نومه وشغله ، وهذا موجود فيمن كثر اهتمامه بشيء ، وثبت في قلبه إنه إذا نام أو اشتغل لم يفقده في شغله ونومه كما لا يفقده في يقظته وفراغه ، ولهذا والله أعلم إذا رأى الولي المتمكن في رتبة الصديقين مخلوقاً حياً أو جماداً صغيراً أو كبيراً ، لم يره من حيث هو هو ، وإنما يراه من حيث أوجده الله تعالى بالقدرة ، وميزه بالإرادة على سابق العلم القديم ، ثم أدام القهر عليه في الوجود ، ثم لما كانت الصفات المشهورة آثارها في المخلوقات ليست لغير الموصوف الذي هو الله عَزَّ وَجَلَّ له ألهت الولي عن غيره ، وصار لم ير سواه ومعنى ذلك أنه لا يتميز بالذكر في سر القلب وخير المعرفة ولا بالإدراك في ظاهر الحس ، دون ما كان موجوداً به وصار عنه فانياً ، فبعد هذا على من أصحبه أن لا يحتاج إليها مع هذا الوضوح ، ولا فهم إلا بالله ، ولا شرح إلا منه ، ولا نور إلا من عنده ، وله الحول والقوة وهو العلي العظيم .

فصل

وأما معنى إفشاء سر الربوبية فيخرج على وجهين :

أحدهما : أن يكون المراد به كفراً دون كفر ، ويسمى بذلك تعظيماً لما آتى به المفشي وتعظيماً لما ارتكبه .

ويعترض هذا بأن يقال لا يصح أن يسمى هذا كفراً ، لأنه ضد الكفر ، إذ الكفر الذي سمي على معناه ساتر ، وهذا المفشي للسر ناشر ، وأين النشر والإظهار من التغطية ، والإعلان من الكتم ، واندفاع هذا هين بأن يقال ، ليس الكفر الشرعي تابع الاشتقاق ، وإنما هو حكم لمخالفة الأمر ، وارتكاب النهي ، فمن رد إحسان محسن ، أو جحد نعمة متفضل ، فيقال عليه كافر لجهتين :

إحداهما : من جهة الاشتقاق ، ويكون إذ ذاك اسماً ينبيء عن وصف .

والثانية : من جهة الشرع ، ويكون إذ ذاك حكماً يوجب عقوبة ، والشرع قد ورد بشكر النعم ، فافهم ولا تذهب مع الألفاظ ، ولا يغرنك العبارات ، ولا تحجبك التسميات ، وتفطن لخداعتها ، واحترس من استدراجها ، فإذاً من أظهر ما أمر بكتمه كان كمن كتم ما أمر بنشره ، وفي مخالفة الأمر فيهما حكم واحد على هذا الاعتبار ، ويدل على ذلك من جهة الشرع ، قوله ﷺ : «لا تُحَدِّثُوا النَّاسَ بِمَا لَمْ تَصِلْهُ عُقُولُهُمْ» وفي ارتكاب النهي عصيان ، ويسمى في باب القياس على المذكور كفران البدن .

وقسمة أخرى : وذلك أن العلم إن حلل إلى ما علم من أجزائه بالاستقراء فرأس الإنسان تشابه سماء العالم ، من حيث إن كل ما علا فهو سماء ، وحواسه تشابه الكواكب والنجوم ، من حيث إن الكواكب أجسام مشفة تستمد نور الشمس فتضيء بها ، والحواس أجسام لطيفة مشفة تستمد من الروح ، فيضيء مسلك المدركات ، وروح الإنسان مشابهة للشمس ، فضياء العالم ، ونور نباته ، وحركة ضواربه وحيوانه وحياته ، فيها تظهر بتلك الشمس ، وكذلك روح الإنسان به حصل في الظاهر نمو أجزاء بدنه ، ونبات شعره ، وحلول حياته ؛ وجعلت الشمس وسط العالم ، وهي تطلع بالنهار ، وتغرب بالليل ، وجعلت الروح وسط جسم الإنسان ، وهي تغيب بالنوم ، وتطلع باليقظة ونفس الإنسان تشابه القمر ، من حيث إن القمر

يستمد من الشمس ، ونفسه تستمد من الروح ، والقمر خالف الشمس ، والروح خالف النفس ، والقمر آية ممحوة ، والنفس مثلها ، ومحو القمر في آن لا يكون ضياؤه منه ، ومحو النفس في آن ليس عقلها منها ، ويعتري الشمس والقمر وسائر الكواكب كسوف ، وتعتري النفس والروح وسائر الحواس غيب وذهول ، وفي العالم نبات ومياه ورياح وجبال ، وحيوان ، وفي الإنسان نبات ، وهو الشعر ، ومياه وهو العروق ، والدموع والريق والدم ، وفيه جبال ، وهي العظام ، وحيوان وهي هوام الجسم ، فحصلت المشابهة على كل حال ، ولما كانت أجزاء العالم كثيرة ، ومنها ما هي لنا غير معروفة ، ولا معلومة ، كان في استقصاء مقابلة جميعها تطويل ، وفيما ذكرناه ما يحصل به لذوي العقول تشبيه وتمثيل .

فإن قلت : أراك فرقت بين النفس والروح ، وجعلت كل واحد منهما غير الآخر ، وهذا قلما تساعد عليه ، إذ قد كثر الخلاف في ذلك .

فاعلم أنه إنما على الإنسان أن يبني كلامه على ما يعلم لا على ما يجهل ، وأنت لو علمت النفس والروح علمت أنهما اثنان .

فإن قلت : فقد سبق في الإحياء أنهما شيء واحد ، وقلت في هذه الإجابة إن النفس من أسماء الروح ، فالذي سبق في الاختيار ورأيت في هذه الإجابة ، وهو شيء واحد لا يتناقض مع ما قلناه الآن ، وذلك أن لها معنى يسمى بالروح تارة ، وبالنفس أخرى ، وبغير ذلك ، ثم لا بد أن يكون لها معنى آخر ينفرد باسم النفس فقط ، ولا يسمى بروح ولا غير ذلك ، فهذا آخر الكلام في أحد وجهي الإضافة التي في ضمير صورته ، والوجه الآخر وهو أن من حمل إضافة الصورة إلى الله تعالى على معنى التخصص به ، فذلك لأن الله سبحانه نبأ بأنه حي قادر ، سميع بصير ، عالم مريد ، متكلم فاعل ، وخلق آدم عليه السلام ، حياً قادراً ، عالماً ، سميعاً بصيراً ، مريداً ، متكلماً ، فاعلاً ، وكانت لآدم عليه السلام صورة محسوسة ، مكنونة مخلوقة ، مقدرة بالفعل ، وهي لله تعالى مضافة باللفظ ، وذلك أن هذه الأسماء لم تجتمع مع صفات آدم إلا في الأسماء التي هي عبارة تلفظ فقط ، ولا يفهم من ذلك نفي الصفات فليس هو مرادنا ، وإنما مرادنا تباين ما بين الصورتين بأبعد وجوه الإمكان ، حتى لم تجتمع مع صفات الله تعالى إلا في الأسماء الملفوظ بها لا غير ، وفراراً أن نثبت صورة لله تعالى ، ويطلق عليها حالة الوجود ، فافهم هذا ، فإنه من أدق ما يقرع سمعك ، ويلج قلبك ، ويظهر لعقلك ، ولهذا قيل لك ، فإن كنت تعتقد الصورة الظاهرة ، ومعناه إن حملت إحدى الصورتين على الأخرى في الوجود ، تكن مشبهاً مطلقاً ومعناه تتيقن أنك من المشبهين لا من المنزهين ، على نفسك بالتشبيه معتقداً ، ولا تنكر كما قيل : كن يهوديا صرفاً ، وإلا فلا تلعب بالتوراة ، أي تتلبس بدينهم وتريد أن لا تنسب إليه ، أي لا تقرأ التوراة ولا تعمل بها ، وإن كنت تعتقد الصورة الباطنة ، منزهاً مجللاً ومقدساً مخلصاً ، أي ليس تعتقد من الإضافة في الضمير إلى الله تعالى إلا الأسماء دون المعاني ، فتلك المعاني المسماة لا يقع عليها اسم صورة على حال ، وقد حفظ عن الشبلي رحمة الله عليه ، في معنى ما ذكرناه من هذا الوجه قول بليغ مختصر ، حين سئل عن معنى الحديث ، فقال : خلقه الله على الأسماء والصفات ، لا على الذات .

فإن قلت : فكذا قال ابن قتيبة في كتابه المعروف بتناقض الحديث ، حين قال هو صورة لا كالصورة ،

فلم أخذ عليه في ذلك ، وأقيمت عليه الشناعة به ، وأطرح قوله ، ولم يرضه أكثر العلماء وأهل التحقيق .

فاعلم أن الذي ارتكبه ابن قتيبة عفا الله عنه نحن أشد إعراضا عنه ، وأبلغ في الإنكار عليه . وأبعد الناس عن تسويغ قوله ، وليس هو الذي ألممنا نحن به وأفدناك بحول الله وقوته إياه ، بل يدل منك أنك لم تفهم غرضنا ، وذهلت عن تعقل مرادنا ، ولم تفرق بين قولنا وبين ما قاله ابن قتيبة ، ألم أخبرك أننا أثبتنا الصورة في التسميات ، وهو أثبتها حالة للذات ، فأين من لب الجوز ، قشور تفرقع ، والذي يغلب على الظن في ابن قتيبة أنه لم يقرع سمعه هذه الدقائق التي أشرنا إليها وأخرجناها إلى حيز الوجود بتأييد الله تعالى بالعبارة عنها ، وإنما ظهر له شيء لم يكن له به إلف وعلاه الدهش ، فتوقف بين ظاهر الحديث الذي هو موجب عند ذوي القصور تشبيها ، وبين التأويل الذي ينفيه ، فأثبت المعنى المرغوب عنه ، وأراد نفي ما خاف من الوقوع فيه ، فلم يتأت له اجتماع ما رام ، ولا نظام ما اقترف ، فها هو صورة لا كالصورة ، ولكل ساقطة لاقطة ، فتبادر الناس إلى الأخذ عنه .

فصل

ومعنى قاطع الطريق فإنك بالوادي المقدس طوى ، أي دم على ما أنت عليه من البحث والطلب ، فإنك على هداية ورشد ، والوادي المقدس عبارة عن مقام الكليم موسى عليه السلام ، مع الله تعالى في الوادي وإنما تقدس الوادي بما أنزل فيه من الذكر ، وسمع كلام الله تعالى ، وأقيم ذكر الوادي مقام ما حصل فيه فحذف المضاف وأقام المضاف إليه مقامه وإلا المقصود ما حذف لا ما ظهر بالقول ، إذ المواضع لا تأثير لها وإنما هي ظروف .

فصل

ومعنى فاستمع أي سر بقلبك لما يوحى ، فلعلك تجد على النار هدى ، ولعلك من سرادقات العز تنادى بما نودي به موسى ، إني أنا ربك ، أي فرغ قلبك لما يرد عليك من فوائد المزيد ، وحوادث الصدق ، وثمار المعارف ، وارتياح سلوك الطريق ، وإشارات قرب الوصول ، وسر القلب ، كما يقول أدن الرأس ، ووسع الآذان ، وما يوحى أي ما يرد من الله تعالى بواسطة ملك ، أو إلقاء في روع ، أو مكاشفة تحقيقية ، أو ضرب مثل مع العلم بتأويله ، ومعنى لعلك حرف ترويح ، ومعنى إن لم تدركك آفة تقطعك عن سماع الوحي من إعجاب بحال ، أو إضافة دعوى إلى النفس أو قنوع بما وصلت إليه ، واستبداد به عن غيره ، وسرادقات المجد ، هي حجب الملكوت ، وما نودي به موسى ، وهو علم التوحيد التي وسعت العبارة اللطيفة عنه بقوله حين قال له : يا موسى إني أنا الله لا إله إلا أنا ، والمنادى باسمه أزلاً وأبداً ، هو اسم موسى لما سمي السالك الموجود في كلام الله تعالى في أزل الأزل ، قبل أن يخلق موسى لا إلى أول ، وكلام الله تعالى صفة له لا يتغير كما لا يتغير هو ، إذ ليست صفاته المعنوية لغيره ، وهو الذي لا يحول ولا يزول ، وقد ذل قوم عَظُم اقتراحهم وهوانهم ، حملوا صدور هذا القول على اعتقاد اكتساب النبوة وعياذاً بالله من أين يحتمل هذا القول ما حملوه من المذهب ، أليسوا وهم يعرفون أن كثيراً ممن يكون بحضرة ملك من ملوك الدنيا وهو يخاطب إنساناً آخر قلد ولاية كبيرة وفوض إليه عملاً عظيماً ، وحباه حباء خطيراً ، وهو ينادي

باسمه أو يأمره بما يمتثل من أمره ، ثم إن السامع للملك الحاضر معه غير المولى ، لم يشارك المولى المخلوع عليه ، والمفوض إليه في شيء مما ولي وأعطي ، ولم تجب له بسماعه ومشاهدته أكثر حظوة القربة ، وشرف الحضور ، ومنزلة المكاشفة من غير وصول إلى درجة المخاطب بالولاية ، والمفوض إليه الأمر ، ولذلك هذا السالك المذكور إذا وصل في طريقه ذلك ، بحيث يصل بالمكاشفة والمشاهدة واليقين التام الذي يوجب المعرفة والعلم بتفاصيل المعلوم ، فلا يمتنع أن يسمع ما يوحى لغيره من غير أن يقصد هو بذلك ، إذ هو محل سماع الوحي على الدوام ، وموضع الملائكة ، وكفى بها أنها الحضرة الربوبية ، وموسى عليه السلام ما استحق الرسالة والنبوة ، ولا استوجب التكليم وسماع الوحي مقصوداً بذلك ، بحلوله في هذا المقام الذي هو المرتبة الثالثة فقط ، بل قد استحق ذلك بفضل الله تعالى حين خصه بمعنى آخر ترقى إلى ذلك المقام أضعافاً ، فجاوز المرتبة الرابعة ، لأن آخر مقامات الأولياء أول مقامات الأنبياء ، وموسى عليه السلام نبي مرسل ، فمقامه أعلى بكثير مما نحن آخذون في أطرافه لأن هذا المقام الذي هو المرتبة الثالثة ، ليست من غايات مقام الولاية بل هو إلى مباديها أقرب منه إلى غايتها ، فمن لم يفهم درجات المقام ، وخصائص النبوة ، وأحوال الولايات كيف يتعرض للكلام فيها ، والطعن على أهلها ، هذا لا يصلح إلا لمن لا يعرف أنه مؤاخذ بكلامه ، محاسب بظنه ويقينه ، مكتوب عليه خطراته ، محفوظ عليه لحظاته ، مخلصاً منه يقظاته وغفلاته فـ ﴿مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ (ق : 18) .

فإن قلت : أراك قد أوجبت له نداء الله تعالى ، ونداء كلامه ، والله تعالى يقول : ﴿تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ مِنْهُمْ مَنْ كَلَّمَ اللهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ﴾ (البقرة : 253) فقد نبه أن تكليم الله تعالى لمن كلمه من الرسل إنما هو على سبيل المبالغة في التفضيل ، وهذا لا يصلح أن يكون لغيره ليس بنبي ولا رسول ، وإذا بان السبب وقصد بادر الشك العارض في مسالك الحقائق فنقول : ليس في الآية ما يرد ما قلنا ، ولا يكسره لأنا ما أوجبنا أنه كلمه قصداً ولا توخاه بالخطاب عمداً .

وإنما قلنا يجوز أن يسمع ما يخاطب الله تعالى به غيره مما هو أعلى منه ، أليس من يسمع كلام إنسان مثلاً مما يتكلم به غير السامع فيقال فيه : إنه كليمه ؟ وقد حكي أن طائفة من بني إسرائيل سمعوا كلام الله تعالى الذي خاطب به موسى حين كلمه ، ثم إذا ثبت ذلك لم يجب لهم به درجة موسى عليه السلام ولا المشاركة في نبوته ورسالته ، على أنا نقول نفس ورود الخطاب إلى السامعين من الله تعالى ، يمكن الاختلاف فيه فيكون النبي المرسل يسمع كلام الله تعالى عَزَّ وَجَلَّ الذاتي القديم ، بلا حجاب في السمع ، ولا واسطة بينه وبين القلب ، ومن دونه يسمعه على غير تلك الصورة ، مما يلقى في روعه ، ومما ينادى به في سمعه أو سره ، وأشباه ذلك كما ذكر أن قوم موسى عليه السلام ، حين سمعوا كلام الله سبحانه مع موسى أنهم سمعوا صوتاً كالشبور وهو القرآن ، فإذا صح ذلك فبتباين المقامات اختلف ورود الخطاب ، فموسى سمع كلام الله بالحقيقة الذي هو صفة له بلا كيف ولا صورة نظم الحروف ، ولا أصوات ، والذين كانوا معه أيضاً ، سمعوا صوتاً مخلوقاً جعل لهم علامة ودلالة على صحة التكليم وخلق الله سبحانه لهم بذلك العلم الضروري ، وسمي ذلك الذي سمعوه كلامه ، إذ كان دلالة عليه ، كما تسمى التلاوة وهي الحروف

المتلو بها القرآن كلام الله تعالى إذ هي دلالة عليه .

فإن قلت : فما يبقى على السامع إذا سمع كلام الله تعالى الذي يستفيد معرفة وحدانيته وفقه أمره ونهيه ، وفهم مراده وحكمه ، يلحقه العلم الضروري فيما أرى بأنه الشيء المرسل ، إلا بأن يشتغل بإصلاح الخلق دورته ، ولو كان عوضاً منه أخَّر عنه ومقامه مقامه .

فاعلم أن الذي أوجب عثورك ودوام زللك ، واعتراضك على العلوم بالجهل ، وعلى الحقائق بالمخايل ، أنك بعيد عن غور المطالب ، قعيد في شرك المعاطب ، قعيد صوب الصوت ، عتيد صخب السحاب ، إن الذي استحق به الناظر السالك الواصل المرتبة الثالثة سماع نداء الله تعالى معنى ومقام وحال وخاصة أعلى من تلك الأولى واجل وأكبر ، وبينهما ما بين من استحق المواجهة بالخطاب والقصد به ، وبين من لا يستحق أكثر من سماعه من يخاطب به غيره ، فهذا من الإشارة باختلاف ورود الخطاب إليهما ، مما يوجب نفوراً ، وتباين ما بينهما ، فإن فهمت الآن وإلا فقد عنى لا ندر بحال .

فإن قيل : ألم يقل الله تعالى : ﴿فَلا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَداً ۝ إِلا مَنِ ارْتَضَى مِنْ رَسُولٍ﴾ (الجن : 26 ، 27) وسماع كلام الله تعالى بحجاب أو بغير حجاب ، وعلم ما في الملكوت ومشاهدة الملائكة ، وما غاب عن المشاهدة والحس من أجل الغيوب ، فكيف يطلع عليها من ليس برسول ؟

قلنا : في الكلام حذف يدل على صحة تقديره الشرع الصادق ، والمشاهدة الصورية ، أن يكون معناه إلا من ارتضى من رسول ، ومن اتبع الرسول بالإخلاص والاستقامة أو عمل بما جاء به ، لأن النبي ﷺ قال : «اتَّقُوا فِرَاسَةَ الْمُؤْمِنِ فَإِنَّهُ يَنْظُرُ بِنُورِ اللهِ» وهل يبقى إلا ما غاب عنه أن ينكشف إليه ، وقال : «إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مُحدثونَ فَعُمَرٌ» أو كما قال : «الْمُؤْمِنُ يَنْظُرُ بِنُورِ اللهِ» وفي القرآن العزيز : ﴿قَالَ الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِنَ الْكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ﴾ (النمل : 40) فعلم ما غاب عن غيره من إمكان بيان ما وعد به ، وأراد أنه قدر عليه ، ولم يكن نبياً ولا رسولاً ، وقد أنبأ الله سبحانه وتعالى عن ذي القرنين من إخباره عن العلوم الغيبية ، وصدقه فيه حين قال : ﴿فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُ دَكَّاءَ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقّاً﴾ (الكهف : 98) وإن كان وقع الاختلاف في نبوة ذي القرنين فالإجماع على أنه ليس برسول ، وهو خلاف المسطور في الآية ، وإن رام أحد المدافعة بالاحتيال لما أخبر به ذو القرنين ، وما ظهر على يدي الذي كان عنده علم من الكتاب ، وأراد أن يجوز على عمر التشبه بالحقائق ، فما يصنع فيما جرى للخضر ، وما أنبأ الله سبحانه ، وأظهر عليه من العلوم الغيبية ، وهو بعد أن يكون نبياً فليس برسول على الوفاق من الجميع والله تعالى يقول : ﴿إِلا مَنِ ارْتَضَى مِن رَسُولٍ﴾ (الجن : 27) فدل على أن في الآية حذف مضاف معناه ما تقدم .

وانظر إلى ما ظهر من كلام سعد رضي الله عنه ، أنه يرى الملائكة وهو غيب الله وأعلم أبو بكر بما في البطن وهي من غيب الله ، وشواهد الشرع كثيرة جداً ، يعجز المتأول ويلهو المعاند ، هذا والقول بتخصيص العموم أظهر من الجراءة وأشهر مما نقل الكافة ويحتمل أن يكون المراد في الآية بالرسول المذكور فيها ملك الوحي ، الذي بواسطته تنجلي العلوم وتنكشف الغيوب ، فمتى لم يرسل الله ملكاً

بإعلام غيب ، أو يخاطب مشافهة أو إلقاء معنى في روع ، أو ضرب مثل في يقظة أو منام ، لم يكن إلى علم ذلك الغيب سبيل ، ويكون تقدير الآية ، فلا يظهر على غيبه أحداً إلا من ارتضى من رسول أن يرسله إلى من يشاء من عباده في يقظة أو منام ، فإنه يطلع على ذلك أيضاً ، ويكون تقدير الآية ، فلا يظهر على غيبه أحداً إلا من ارتضى من رسول أن يرسله إلى من يشاء من عباده في يقظة أو منام ، فإنه يطلع على ذلك أيضاً ويكون فائدة الإخبار بهذا في الآية ، الامتنان على من رزقه الله تعالى علم شيء من مكنوناته وإعلامه أنه لا تصل إليها نفسه ، ولا مخلوق سواه إلا بالله تعالى ، حين أرسل إليه الملك بذلك ، وبعثه الله حتى يتبرأ المؤمن من حوله ومن حول كل مخلوق وقوته ، ويرجع إلى الله تعالى وحده ، ويتحقق على أنه لا يرد عليه شيء من علم ، أو معرفة ، أو غير ذلك إلا بإرادته ومشيئته ، ويحتمل وجه آخر ، وهو أن يكون معناه والله أعلم ، فلا يظهر على غيبه أحداً إلا من ارتضى ، يريد من سائر خلقه ، وأصناف عباده ، ويكون معنى من رسول أي عن يد رسول من الملائكة .

فصل

ومعنى ولا يتخطى رقاب الصديقين إن قلت : ما الذي أوصله إلى مقامهم ، أو جاوز به ذلك ، وهو في المرتبة الثالثة حال المقربين ما وصل حيث ظننت ، فكيف يجاوزه ؟ وإنما خاصية من هو في رتبة الصديقين عدم السؤال ، لكثرة التحقق بالأحوال ، وخاصية من هو في رتبة القرب كثرة السؤال ، طمعاً في بلوغ الآمال ، ومثالها فيما أشير إليها مثال إنسانين دخلا في بستان ، أحدهما : يعرف جميع أنواع نبات البستان ، ويتحقق أنواع تلك الثمار ، ويعلم أسماءها ومنافعها ، فهو لا يسأل عن شيء مما يراه ، ولا يحتاج إلى أن يخبر به ، والثاني لا يعرف مما رأى شيئاً ، أو يعرف بعضاً ويجهل أكثر مما يعرف ، فهو يسأل ليصل إلى علم الباقي ، وذلك من تكلمنا عليه حين أكثر السؤال عما يبعد عنه حاله ويتخلف عن مقامه إلى ما هو أعلى منه ، وكان غير مراد لذلك إما في ذلك الوقت أو الأبد وتلك العلوم التي كانت لا تنال بالكسب ، وإنما تنال بالمنح ، فقيل له لا تتخط رقاب الصديقين بالسؤال ، فذلك مما لا يخطر به ، وليس هو من الطرق الموصلة إلى مقامهم فارجع إلى الصديق الأكبر ، فاقتد به في حاله وسيرته ، فعساك ترزق مقامه فإن لم يكن فتبقى على حالة القرب وهي تتلو الصديقية ، فهذا معناه .

فصل

ومعنى انصراف السالك الناظر بعد وصوله إلى ذلك الرفيق الأعلى ، إما أنه لما وصل إليه بالسؤال صرف إليه ما لاق به من الأحوال ليحكم ما بقي عليه من الأعمال ، كما قال المصطفى ﷺ للذي سأله أن يعلمه غرائب العلم : «اذْهَبْ فَاحْكُمْ ما هُنَاكَ وَبَعْدَ ذَلِكَ أُعَلِّمُكَ غَرَائِبَ العِلْمِ» وأما صفة انصرافه فإنه نهض بالبحث ورجع بالتذكر وفوائد المزيد ووجهه أن من لم يستطع المقام في ذلك الموضع بعد وصوله إليه فذلك لتعلق خبر المعرفة بالبدن ، ومسكنه عالم الملك ، ولم يفارقه بعد الموت وطول الغيب عنه لا يمكن في العادة ، ولو أمكن لهلك الجسم وتفرقت الأوصال ، والله تعالى أراد عمارة الدنيا : وقد سبق في علمه ولن تجد لسنة الله تبديلاً ، ومعنى قول أبي سليمان الداراني لو وصلوا ما رجعوا ما رجع إلى حالة الانتقاص من

وصل إلى حالة الإخلاص والذي طمع الناظر في الحصول فيه سؤاله وتماديه إلى حال القرب منه إذا لم يصلح لذلك ولم يصف ولم يخلص أعماله .

فصل

ومعنى بأن ليس في الإمكان أبدع من صورة العالم ، ولا أحسن ترتيباً ، ولا أكمل صنعاً ، ولو كان وادخره مع القدرة كان ذلك بخلاً ، يناقض الكرم الإلهي ، وإن لم يكن قادراً عليه كان عجزاً ، يناقض القدرة الإلهية ، فكيف يقضي عليه بالعجز فيما لم يخلقه اختياراً ، وكان ذلك ولم ينسب إليه ذلك قبل خلق العالم ، ويقال ادخار إخراج العالم من العدم إلى الوجود عجز مثل ما قيل فيما ذكرنا ، وما الفرق بينهما ، وذلك لأن تأخيره بالعالم قبل خلقه عن أن يخرجه من العدم إلى الوجود يقع تحت الاختيار الممكن ، من حيث إن الفاعل المختار له أن يفعل فإذا فعل فليس في الإمكان أن يفعل إلا نهاية ما تقتضيه الحكمة التي عرفنا أنها حكمة ، ولم يعرفنا بذلك إلا لنعلم مجاري أفعاله ، ومصادر أموره ، وأن نتحقق أن كل ما اقتضاه ويقضيه من خلقه ، بعلمه ، وإرادته وقدرته أن ذلك على غاية الحكمة ، ونهاية الإتقان ، ومبلغ جودة الصنع ، ليجعل كمال ما خلق دليلاً قاطعاً وبرهاناً على كماله في صفات جلاله الموجبة لإجلاله فلو كان ما خلق ناقصا بالإضافة إلى غيره ما قدر على خلقه ، ولو لم يخلق لكان يظهر النقصان المدعي على هذا الوجود من خلقه ، كما يظهر على ما خلقه على غير ذلك ، ويكون الجميع من باب الاستدلال على ما صنع من النقصان قطعاً ، وما يحمل عليه من القدرة على أكمل منه ظناً ، إذ خلق للخلق عقولاً وجعل لهم فهوماً ، وعرفهم ما أكن ، وكشف لهم ما حجب وأجن ، فيكون من حيث عرفهم بكماله دلهم على نقصه ، ومن حيث أعلمهم بقدرته بصّرهم بعجزه ، فتعالى الله رب العالمين ، الملك الحق المبين .

وأيضاً فلا يعترض هنا ويتزر به ، إلا من لا يعرف مخلوقاته ، ولم يصرف الكلام الصحيح في مشابه ذلك أصلاً في العلم ، أو كان نسخاً له ومعنى نقيس عليه غيره ، وأما انكشافه بخير ممن رزق علم ذلك كان بطلان العلم في حق المخبر ، إذ أفشاه لغير أهله ، وأهداه لمن لا يستحقه ، كما روي عن عيسى على نبينا وعليه السلام ، ولا تعلقوا الدر في أعناق الخنازير ، وإنما أراد قطاع العلم غير أهله ، وقد جاء لا تمنعوا الحكمة أهلها ، فتظلموهم ، ولا تضعوها عند غير أهلها فتظلموها .

وأما سر العلم الذي يوجب كشفه بطلان الأحكام ، فإن كان كشفه من الله سبحانه لقلوب ضعيفة بطلت الأحكام ، في حقها لمن يطلع عليه في ذلك السر من معرفة مآل الأشياء ، وعواقب الخلق ، وكشف أسرار العباد ، وما يظن من مقدوره ، فمن عرف نفسه مثلاً أنه من أهل الجنة لم يصل ، ولم يصم ، ولم يتعب نفسه في خير ، وكذلك لو انكشف له أنه من أهل النار ، كمل انهماكه فلا يحتاج إلى تعب زائد ، ولا تصيبه مكابدة ، فلو عرف كل واحد عاقبته ومآله بطلت الأحكام الجارية عليه ، وإن كان كشفها من مخبر استروح الضعيف إلى ما يسمع من ذلك ، فيتعطل وينخرم حاله ، وينحل قيده ، وبعد هذا فلا يحمل كلام سهل إلا على ما يقدر لا على ما يوجد ، ولذلك جعله مقروناً بحرف لو ، الدال على امتناع الشيء ، لامتناع غيره ، كما يقال : لو كان للإنسان جناحان لطار ، ولو كان للسماء درج لصعد عليها ، ولو كان

البشر ملكاً لفقد الشهوات ، فعلى هذا يخرج كلام سهل في ظاهر العلم .

فصل

وأما خطاب العلماء للجمادات فغير مستنكر فقديماً ندب الناس الديار ، وسألوا الأطلال واستخبروا الآثار ، وقد جاء في أشعار العرب وكلامها من ذلك كثير . وفي حديث النبي ﷺ : «اسْكُنْ أُحُدٌ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ نَبِيٌّ وصِدِّيقٌ وشَهِيدَانِ» . وقال بعضهم : اسأل الأرض تخبرك عمن شق أنهارها ، وفجر بحارها ، وفتق أهواءها ، ورتق أحواءها ، وأرسى جبالها ، إن لم تجبك أجابتك اعتباراً ، وإنما الذي يتوقف على الأذهان ويتحير في قوله السامعون ، وتتعجب منه العقول ، هو كيفية كلام الجمادات والحيوانات الصامتات ، ففي هذا وقع الإنكار ، إذ اضطرب النظار ، وكذب في تصحيح وجوده والسمع من الاعتبار ، ولكن لتعلم أن تلقي الكلام للعقلاء ، ممن لم يعقل عنه في المشهود يكون على جهات ، من ذلك سماع الكلام الذاتي ، كما تتلقى من أهل النطق إذا قصدوا إلى نظم اللفظ ، وذلك أكثر ما يكون للأنبياء والرسل صلوات الله عليهم في بعض الأوقات ، كحنين الجذع للنبي ﷺ ، وكان حجر يسلم عليه في طريقه قبل مبعثه .

ومنها تلقي الكلام في حسن السامع من غير أن يكون له وجود من خارج الحس ، ويعتري هذا سائر الحواس ، كمثل ما يسمع النائم في منامه ، من مثال شخص من غير مثال والمثال المرئي للنائم ليس له وجود في سمعه ، وأما ما يجده غير النائم في اليقظة فمنها خاصة وعامة ، فقد ورد أن الحجر في زمن عيسى ينادي المسلم يا مسلم خلفي يهودي فاقتله ، وإن لم يخلق الله تعالى للحجر حياة ونطق ، ويذهب عنه معنى الحجرية ، أو يوكل بالحجر من يتكلم عنه ممن يستر عن الأبصار في العادة من الملائكة والجن ، أو يكون كلام يخلقه الله عَزَّ وَجَلَّ في أذن السامع ، ليفيده العلم باختفاء اليهودي ، حتى يقتله وكما يقال في العرض الأكبر يوم القيامة ، إذا نودي فيه باسم كل واحد على الخصوص ، وفي الخلائق مثل اسم المنادى به كثير ، وقد قالت العلماء : إنه لا يسمع النداء في ذلك الجمع إلا من نودي ، فيحتمل أن يكون ذلك النداء يخلق للمنادى في حاسة أذنه ليتحرك إلى الحساب وحده دون من يشاركه في اسمه ، ولا يكون نداء من خارج ، والأمثلة كثيرة في الشرع ، وفيما سمعت غنية ومقنع .

ومنها تلقي الكلام في العقل ، وهو المستفاد بالمعرفة ، المسموع في القلب ، المفهوم في التقدير على اللفظ المسمى بلسان الحال كما قال قيس :

وأجهشت للتوبـاد حـين رأيته ... وكبر للرحمـــن حيـث رآني
فقلت لـه أيـن الذين عهدتهم ... حواليك في عيش وخفض زمان
فقال مضوا واستودعوني بلادهم ... ومـــن الذي يبقـى على الحدثان

وفي أمثال العوام : قال الحائط للوتد لم تشقني ؟ فقال الوتد للحائط : سل من يدقني . فلو كانت العبارة تتأتى منها ما عبرت إلا بما قد استعير لها ، وعلى هذا المعنى حمل كثير من العلماء قوله تعالى إخبارا عن السماء والأرض حين ﴿قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ﴾ (فصلت : 11) وفي قوله تعالى : ﴿إِنَّا عَرَضْنَا الأَمَانَةَ عَلَى

السَّمَوَاتِ والأَرْضِ والجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وأَشْفَقْنَ مِنْهَا وحَمَلَهَا الإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُوماً جَهُولاً﴾ (الأحزاب : 72) ومنها تلقي الكلام من الجبال مثل قوله ﷺ : «كَأَنِّي أَنْظُرُ إِلَى يُونُسَ بن مَتَّى عَلَيْهِ السَّلامُ عَلَيْهِ عَبَاءَتَانِ قَطْوَانِيَّتَانِ يُلَبِّي وتُجِيبُهُ الجِبَالُ واللهُ يَقُولُ لَبَّيْكَ يا يُونُسُ» فقوله : كأني ، يدل على أنه حالة سبقت لم يكن لها في الحال وجود ذاتي ، لأن يونس بن متى عليه السلام قد مات ، وتلك الحالة منه سلفت ، وفي هذا الحديث منه إخبار عن الوجود الخيالي في البصر والوجود الخيالي في السمع .

ومنها تلقي الكلام بالشبه ، وهو أن يسمع السامع كلاما أو صوتا من شخص حاضر ، فيلقي عليه شبه غيره مما غاب عنه ، كقوله عليه السلام في صوت أبي موسى الأشعري ، إذ سمعه يترنم بالقرآن : «لَقَدْ أُعْطِيَ مِزْمَاراً مِنْ مَزَامِيرِ آلِ دَاوُدَ» ومزامير آل داود قد عدمت وذهبت ، وإنما شبه صوته بها ، وكما إذا سمع المريد صوت مزمار ، أو عود فجأة على غير قصد ، يتخيل صرير أبواب الجنة وشبهها ، بما فاجأ صوته من ذلك .

فهذه مراتب الوجود ، فأنت إذا أحسنت التصرف بين أساليبها ، ولم يعترك غلط في بعضها ببعض ، ولا اشتبهت عليك ، وسمعت عمن نظر بمشكاة نور الله تعالى إلى كاغد ، وقد رآه أسود وجهه بالحبر ؛ فقال له : ما بال وجهك وقد كان أبيض أشقر مؤنقاً ، والآن قد ظهر فيه السواد ، فلم سودت وجهك ؟ فقال : سل الحبر فإنه كان مجموعاً في المحبرة التي هي مستقره ووطنه ، فسافر عن الوطن ، ونزل بساحة وجهي ظلماً وعدواناً ، فقال : صدقت . ثم أنت إذا سمعت أمثال هذه المراجعات أعمل الفكر ، وجدد النظر ، وحل الكلام إلى أجزائه التي ينتظم منها جملة ما بلغك ، فسأل عن معنى الناظر ، ومعنى المشكاة ومعنى نور الله سبحانه ، وما سبب أنه لم يعرف الناظر الكتابة والمكتوب : وبأي لسان خاطب الكاغد ؟ وكيف مخاطبة الكاغد ، وهو ليس من أهل النطق ؟ وفيما صدق الناطق الكاغد ؟ ولم صدقه بمجرد قوله دون دليل ولا شاهد ؟ فيبدو لك هاهنا من الناظر هو ناظر القلب ، فيما أورده عليه الحس ، والمشكاة استعارة من مشكاة الزجاجة ، التي أعمرت بسراج النار إلى خير المعرفة الملقب بسر القلب ، شبيهاً بها ، لأنها مسرجة الرب سبحانه وتعالى شعلها بنوره ، ونوره المذكور هاهنا عبارة عن صفاء الباطن ، واشتعال السر بطلوع نيران كواكب المعارف الذاهبة بإذن الله تعالى ، ظلم جهالات القلوب ، ووجه إضافته إلى الله تعالى على سبيل الإشارة بالذكر لأجل التخصيص بالشرف ، والكاغد والحبر كناية عن أنفسهما لا عن غيرهما ، وجعلهما مبدأ طريقه ، وأول سلوكه ، إذ هما في عالم الملك والشهادة الذي محل جولة الناظر في حال نظره ، وأما سبب أنه لم يعرف الكتابة والمكتوب فلأجل أنه كان أمياً لا يقرأ الكتاب الصناعي ، وإنما يروم معرفة قراءة الخط الإلهي ، الذي هو أبين وأدل على الفهم منه ، وأما مخاطبة الناظر الكاغد وهو جماد ، فسبق الكلام على مثله ، ومراجعة الكاغد له ، فعلى حال الناظر إن كان مراداً فليلقي الكلام في الحس بما ينبئه عن المطلوب من الحق ، وهو من باب الإلقاء في الروع فيودعه الحس المشترك المحفوظ فيه على الإنسان صور الأشياء المحسوسة ، وإن كان مريداً فيتلقاه بلسان الحال المسموع بسمع القلب بواسطة المعرفة ، والعقل وتصديق الناظر للكاغد في عذره وإحالته على الحبر ، لم يكن لمجرد قوله بل بشهادة أولي الرضا والعدل ، وهو البحث ، والتجربة لم تكن ، وشهادة النفس ، وهذا يسلك إلى القدرة وهو آخرها ، سئل عن أجزاء عالم الملك .

وأما ما سمعته في حد عالم الجبروت ، فذلك من القدرة المحدثة إلى العقل ، والعلم ، الموجودين في الإنسان المستقرة في القوة الوهمية المدركة في جميع ما لا يستدعي وجوده جسماً ، ولكن قد يعرض له أنه في جسم ، كما تدرك السخلة عداوة الذئب ، وعطف أمها ، فتتبع العطف وتنفر من العداوة .

وأما ما سمعته في حد عالم الملكوت ، وذلك من العلم الإلهي إلى ما وراء ذلك مما هو داخل فيه ، ومعدود منه فسر القلب الذي يأخذ به عن الملائكة ، ويسمع به ما بعد مكانه ورق معناه ، وعزب عن القلوب من جهة الفكر بصوره ، فأما أي شيء حقائق هذه المذكورات ، وما كنه كل واحد منها ، على نحو معرفتك لأجزاء عالم الملك والشهادة فذلك علم لا ينتفع بسماعه مع عدم المشاهدة ، والله قد عرفك بأسمائها ، فإن كنت مؤمناً فصدق بوجودها على الجملة ، لعلمك أنك لا تخبر بتسميات ليس لها مسميات ، إلى أن يلحقك الله بأولي المشاهدة وتحصل خالص الكرامات ، ومن كفر فإن الله غني حميد .

فصل

والفرق بين العلم المحسوس في عالم الملك وبين العلم الإلهي في عالم الملكوت ، أن العلم كما اعتقدته مجسماً ، بطيء الحركة بالفعل سريع الانتقال بالهلاك ، مخلفاً عن مثله في الظاهر ، مجعولاً تحت قهر سلطان الآدمي الضعيف الجاهل في أكثر أوقاته ، متصرف بين أحوال متنافيه كالعلم ، والجهل ، والعدل ، والظلم ، والشك ، والصدق ، والإفك . فالعلم الإلهي عبارة عن خلق لله في عالم الملكوت مختص بخلاف خصائص الجواهر الحسية الكائنة في عالم الملك ، يري من أوصاف ما سمي به القلم المحسوس كلياً ، مصرفاً يتميز الخالق بحكم إرادته على ما سبق به علمه في أزل الأزل ، وإنما سمي بهذا الاسم لأجل شبهه بعمل ما سمي به ، غير أنه لا يكتب إلا حقائق الحق ، والفرق بين يمين الآدمي ويمين الله عَزَّ وَجَلَّ ، أن يمين الآدمي كما علمت مركبة من عصب استعصى بقاؤها ، وعضل تعضل أدواؤها ، وعظام يعظم بلاؤها ، ولحم ممتد ، وجلد غير جلد ، موصولة كمثلها في الضعف والانفعال ، ملقبة باليد وهي عاجزة على كل حال ، ويمين الله تعالى هي عند بعض أهل التأويل ، عبارة عن قدرته ، وعند بعضهم صفة لله تعالى غير قدرة وليست بجارحة ولا جسم ، وعند آخرين إنها عبارة عن خلق لله واسطة عن القلم الإلهي ، الناقش العلوم ، المحدثة وغيرها ، وبين قدرته التي هي صفة له صرف بها اليمين الكاتبة بالقلم المذكور بالخط الإلهي المثبوت على صفحات المخلوقات الذي ليس بعربي ولا عجمي ، يقرؤه الأميون إذا شرحت صدورهم وتستعجم على القارئين إذا كانوا عبيد شهواتهم ولم يشارك يمين الآدمي إلا في بعض الأسماء ، لأجل الشبه اللطيف الذي بينهما بالفعل ، وتقريباً إلى كل ناقص الفهم عساه يعقل ما أنزل على رسل الله تعالى من الذكر .

فصل

وحد عالم الملك ما ظهر للحواس ، ويكون بقدرة الله تعالى بعضه من بعض ، وصحة التعبير ، وحد عالم الملكوت ما أوجده سبحانه بالأمر الأزلي بلا تدريج ، وبقي على حالة واحدة من غير زيادة فيه ولا نقصان منه ، وحد عالم الجبروت : هو ما بين العالمين مما يشبه أن يكون في الظاهر من عالم الملك ، فحيز بالقدرة الأزلية بما هو من عالم الملكوت .

فصل

ومعنى إن الله خلق آدم على صورته ، فذلك على ما جاء بالحديث عن النبي ﷺ ، وللعلماء فيه وجهان :

فمنهم من يرى أن للحديث سبباً ، وهو أن رجلاً ضرب غلامه فرآه النبي ﷺ فنهاه وقال : «إِنَّ اللهَ تَعَالَى خَلَقَ آدَمَ عَلَى صُورَتِهِ» وتأولوا عود الضمير على المضروب وعلى هذا لا يكون للحديث مدخل في هذا الموضع لم يرده مورد آخر في غير هذا الموطن ويكون الإيمان به إلى غير هذا المعنى المذكور في السبب الحادث ، وإثباته في غير موطن ذلك السبب المنقول مما يعز ويعسر ، فليبق المسبب على حاله ولينظر في وجه الحديث غير هذا مما يحتمل ويحسن الاحتجاج به في هذا الموطن .

والوجه الآخر : أن يكون الضمير الذي في صورته عائداً إلى الله سبحانه ، ويكون معنى الحديث ، أن الله خلق آدم على صورته ، هي إلى الله سبحانه ، وهذا العبد المضروب على صورة آدم ، فإذا هذا العبد المضروب على الصورة المضافة إلى الله تعالى ، ثم ينحصر بيان معنى الحديث ، ويتوقف على بيان معنى هذه الإضافة ، وعلى أي جهة يحمل في الاعتقاد العلمي على الله سبحانه ففيها وجهان :

أحدهما : أن إضافته إضافة ملك إلى الله تعالى كما يضاف إليه العبد والبيت والناقة ، واليمين على أحد الأوجه .

والوجه الآخر : أن تكون إضافة تخصيص به تعالى ، فمن حملها على إضافة الملك له رأى أن المراد بصورته هو العالم الأكبر بجملته ، وآدم مخلوق على مضاهاة صورة العالم الأكبر لكنه مختصر صغير ، فإن العالم إذا فصلت أجزائه بالعلم ، وفصلت أجزاء آدم عليه السلام بمثله وجدت أجزاء آدم عليه السلام مشابهة للعالم الأكبر ، وإذا شابهت أجزاء جملة أجزاء جملة ، فالجملتان بلا شك متشابهتان ، فالذي نظر في تحليل صورة العالم الأكبر فقسمه على أنحاء من القسمة ، وقسم آدم عليه السلام ، كذلك فوجد كل نحوين منهما شبيهين ، فمن ذلك أن العالم ينقسم إلى قسمين ، أحد القسمين ظاهر محسوس كعالم الملك ، والثاني باطن معقول كعالم الملكوت ، والإنسان كذلك ينقسم إلى ظاهر محسوس ، كالعظم واللحم والدم وسائر أنواع الجواهر المحسوسة ، وإلى باطن ، كالروح والعقل والعلم والإرادة والقدرة وأشباه ذلك .

وقسم آخر : وذلك أن العالم قد انقسم بالعوالم إلى عالم الملك : وهو الظاهر للحواس ، وإلى عالم الملكوت ، وهو الباطن في العقول ، وإلى عالم الجبروت : وهو المتوسط الذي أخذ بطرف من كل عالم منها ، والإنسان كذلك انقسم إلى ما شابه هذه القسمة ، فالمشابه لعالم الملك الأجزاء المحسوسة ، وقد علمتها والمشابه لعالم الملكوت ، فمثل الروح والعقل والقدرة والإرادة وأشباه ذلك ، والمشابه لعالم الجبروت فكالإدراكات الموجودة بالحواس ، والقوى الموجودة بأجزائه .

والوجه الثاني : أن يكون معناه كفراً للسامع لا للمخبر بخلاف الوجه الأول ، ويكون هذا مطابق لحديث النبي ﷺ : «لا تُحَدِّثُوا النَّاسَ بِمَا لَمْ تَصِلْهُ عُقُولُهُمْ أَتُرِيدُونَ أَنْ يُكَذَّبَ اللهُ وَرَسُولُهُ» فمن حدث أحداً بما لم يصله عقله ، ربما سارع إلى التكذيب ، وهو الأكثر ، ومن كذب بقدرة الله تعالى وبما أوجدتها ، فقد كفر ولو لم يقصد الكفر ، فإن أكثر اليهود والنصارى وسائر الكفار ما قصدت الكفر ولا